صالح إبراهيم الحسن

ليلة غرق الغالية

رواية

مكتبة العبيكان

obeikandl.com

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحسن، صالح بن إبراهيم

ليلة غرق الغالية. /صالح بن إبراهيم الحسن. - الرياض ١٤٢٥هـ.

٢٠٣ص، ١٤X٢١سم

ردمك: ٩-٦٠٥-٤٠-٩٩٦٠

١- القصص العربية - السعودية أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٣٩٥٣١ ١٤٢٥/٣٧٨٤

ردمك: ٩-٦٠٥-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٣٧٨٤/ ١٤٢٥

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ /٢٠٠٤م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

(١)

تاريخ قبيلتنا يضرب في أعماق الزمن، لها ماض عريق سجله الشعراء في قصائدهم، وتناقلته الركبان. واستطاعت القبيلة باعتمادها على مبادئ الدين، في تسيير حياتها وتعاملها مع الآخرين، أن تكسب قلوب الناس، فينضم إليها كثير من أبناء القبائل الأخرى، ويصبحوا بالولاء من أبنائها. وشارك هؤلاء الموالي في صنع تاريخ القبيلة بعد أن نسوا انتماءاتهم العرقية القديمة. وكانت قبيلتنا حفية بهم، إذ أفسحت لهم الطريق في المشاركة والبناء.

وعلى الرغم من أن سائر القبائل الأخرى كانت تقوم على أساس من عصبية الدم، إلا أن قبيلتنا قد تناست هذه الرابطة في علاقة أبنائها، واحتوت كل محب لها، مؤمن بمبادئها. متمثلة مبادئ الدين الذي يساوي بين الناس ويقرر ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

هذه الصورة المشرفة لقبيلتنا لا يعنى أنها كانت قبيلة مثالية في كل شيء، بل إنها قامت على الملك العضوض، فكان شيخ القبيلة هو الآمر الناهي، ولو لم يمنعه دينه عن البغي والطغيان لتكبر وتجبر، إذ لا تعرف قبيلتنا الشورى حتى وإن كان علماء الدين يذكرون هذا المبدأ في مجلس الشيخ، ويتناقله الناس من السلف

إلى الخلف على أنه مبدأ أصيل لديها، لكن ذلك لم يزد عن كونه مزايدة في قضية يتشدق به بعض المقربين من الشيوخ.

انتقلت رئاسة القبيلة على مدار تاريخها الطويل بين عشائرها، ولم يكن الانتقال مبنياً على أساس منظم، بل تم من خلال حروب طاحنة أهلكت كثيراً من أبنائها، وكان كل شيخ يستولي على الحكم يتتبع أقارب الشيخ السابق.

ورغم ما يظهر على شيوخ القبيلة من قسوة عند انتقال المشيخة من عشيرة إلى أخرى، إلا أنهم كانوا نزاعين إلى الخير والإصلاح، فما إن يستتب لهم الأمر حتى يبادروا إلى بث روح العمل، ويشجعوا أصحاب القدرات على الإنتاج والإبداع.

كانت قبيلتنا في أصلها مجموعة من العشائر التي تسكن الصحراء، لكنها وعلى فترات بعيدة من تاريخها استطاعت أن توسع نطاق أملاكها من الأرض عن طريق حرب القبائل الأخرى، ومن ثم عرض مبادئها ودينها. ثم ما يفتأ أبناء تلك القبائل إلا أن يلتحقوا بنا؛ حباً فيما عرف عنا من العدل والإنصاف الذي طالما افتقدوه. لهذا فما إن يسقط شيخهم في المعركة، حتى يسلم أبناء قبيلته أسلحتهم وينضووا تحت لوائنا.

أغلب أفراد قبيلتنا في أصلهم من سكان البادية إلا أن بعضهم قد سكن المدن. وكانت له معرفة بالتجارة والصناعة. ومع توسع

القبيلة في أراضيها، ازداد تحضر أبنائها، فأنشؤوا كثيراً من المناطق الحضرية التي عرفت بهم. وبقيت قبيلتنا ترفل بالعز لعقود طويلة استطاعت خلالها أن تنشئ لها تاريخاً حافلاً بالمواقف النبيلة التي عرفت بها، وأن يكون لأبنائها بصمات واضحة في العلم والمعرفة.

لكن عوامل عديدة استطاعت أن تضعف القبيلة؛ إذ تخلى شيوخها عن كثير من المبادئ التي توارثوها فيما بينهم، فلم يعد العدل يشغل بالهم، وأصبحت أحكام الدين ومثله مجرد واجهة يتظاهرون بها. وبعدوا عن تلمس أحوال القبيلة ورعاية مصالحها، وأوكلوا أمرها إلى بعض مواليهم الذين ما لبثوا أن استأثروا بكل شيء. ولعل أكبر معاول الهدم التي منيت به قبيلتنا أن مبدأ الشورى لم يؤخذ به على الإطلاق، سواء أكان ذلك في اختيار الشيوخ أم في تسيير أمور القبيلة. فمنيت على طول تاريخها بوعاظ لم يستطيعوا أن يواجهوا صلف الشيوخ، كما لم يعلنوا للعامة والخاصة خطأهم، وقسروا النصوص بتوطين الناس على الطاعة، بحيث أصبح مبدأ الشورى مبدأ أجوف، يكيِّفه كل شيخ بما يخدم حكمه وهيمنته.

ونتيجة لهذه الأخطاء القاتلة في مسيرة القبيلة سقط شيوخها واحداً بعد الآخر، فاستولى على رئاستها بعض مواليها، فنصبوا بعض أفرادها شيوخاً في أول الأمر حتى يقبل الناس بهم، لكنهم ما لبثوا أن استفردوا بالحكم. واستولى في هذه الأثناء أحدهم على

الحكم، واستطاع بهمته أن ينقل رئاسة القبيلة إليه وإلى أبنائه من بعده، وقبله الناس بعد أن أعلن تمسكه بمبادئ القبيلة ومثلها.

كان لهؤلاء الموالي باع طويل في الحرب مما أدى إلى اتساع أملاك قبيلتنا، فوصلوا بها إلى آفاق لم تصلها من قبل، لكنهم كانوا يفتقدون النظرة الإصلاحية والحضارية التي انتهجها أجدادنا على مر التاريخ. ولم يعنوا بهذا التوجه الأصيل في القبيلة، كما لم يعنوا بمصالح أبنائها، فعم الجهل وانطفأت شعلة العلم والتحضر. ثم ما لبث هؤلاء الموالي أن سلموا الأمر للطامعين من قادة عسكرهم، فبدأ الضعف يدب في أوصال البيت الحاكم، وكثرت النزاعات في الأطراف، وبين العشائر، خاصة مع ابتعاد الشيوخ عن متابعة أملاك القبيلة ومصالح أبنائها الذين يزداد عددهم وتزداد معاناتهم.

كانت القبائل المحيطة بقبيلتنا تنظر إلينا بغضب لما أصابها منا؛ لأن قبيلتنا قد استطاعت في مسارها التاريخي أن تدخل كثيراً من الشعوب ضمن دائرتها وولائها. وكانت تلقنها دروساً قاسية عند أي محاولة للاعتداء على جزء من أراضيها. وقد أصبح ذلك الغضب حقداً تتوارثه تلك القبائل فيما بينها، وطالما حاولت الانقضاض على قبيلتنا، لكنها كانت تعود بعد طول نزال بالخيبة والخسران.

كان الشيوخ من الموالي قد أهملوا شأن الحضارة، فخبا نور العلم، وتأخرت الصناعة، ولم يعد للقبيلة من العز إلا اتساع

أراضيها وأملاكها. لكن أبناءها عاشوا في ضنك من الفاقة والجهل، فانعزلوا عمن حولهم، وانكفؤوا على صحاريهم ومدنهم يلوذون بها من معاناتهم. في حين استقام عود القبائل الأخرى بعد صراعات دامية فيما بين أبنائها، لكنهم وصلوا إلى صورة من الحكم وطدت الأمن في ربوعهم. واستطاعت أن تعمد إلى المعرفة العقلية طريقاً إلى النمو، وعنيت بالصناعة لتحقيق رغد العيش لأبنائها. ولهذا فقد قويت شوكة تلك القبائل في حين كانت قبيلتنا تضعف، ويزداد ضعفها مع الأيام، خاصة مع دخولها في حروب طاحنة مع الطامعين في أطراف أملاكها.

لم يطل أمرها بعد ذلك، فتكالبت عليها القبائل الأخرى بعدد وأعداد لم تعهدها، وبصناعات تفوق خيالنا الذي نام مدة طويلة بعد سنين العزلة والانكسار. واستطاعت تلك القبائل أن تجهز على البيت الحاكم، وأن تسقطه عن إمارته فتشتت الجيش. وبذلك سقطت قبيلتنا بين أيدي أعدائها، وقسموا أراضيها إلى أشلاء، فاختصت كل قبيلة بجزء من أراضينا لتأخذ خيراته، وتستعبد أبناءه.

لم يرض أبناء القبيلة بهذا الهوان الذي أصابهم، فإنهم وإن قبلوا الظلم من أحد مشايخهم أو ممن هو على قيادتهم من قبيلتهم، فإنهم لا يقبلون أن يكونوا أذلاء للقبائل الأخرى، ولهذا فقد هبوا يقاتلون أعداءهم، وأصبحت كل عشيرة من عشائر القبيلة

تدفع من حولها من الأعداء؛ حتى استطاعت أن تطرد الغزاة من أكثر أراضيها، لكن نزول تلك القبائل في أراضينا أورثنا عللاً مستعصية، إذ تفرقت على أثرها قبيلتنا إلى عشائر مختلفة الأهواء. ولما خرجت تلك القبائل من أرضنا حرصت على أن تقطع كل من صانعها جزءاً من أملاك القبيلة وتقيمه شيخاً عليها، وأورثت بينهم بذور الخلاف والشقاق، حتى أصبحت تلك القبائل الغازية أقرب إلى شيوخ عشائرنا من أبناء عمومتهم. وحاول المصلحون من أبناء القبيلة لم شمل أبنائها، وتخطي الفترة التي مضت، وإصلاح ذات البين المفتعلة بينهم، لكن ما فعله الغزاة كان أكبر من أن يمحى أثره.

أخذت عشائر القبيلة تلملم جراحها وتستعين بخيرات أرضها لتحسين أوضاع أبناء العشيرة. لم تكن فقيرة فقد حباها الله بأراض رعوية خصبة يمكنها أن تكتفي بخيراتها عن الحاجة لأي قبيلة أخرى، خاصة بعد أن ظهر الذهب في أراضيها. فأخذت تستخرج منه كميات كبيرة، وازدهرت على أثره بعض العشائر. لكن بقيت وحدة القبيلة حلماً عزيزاً يراود أبناءها ما فتئوا يتنادون لتحقيقه.

(٢)

أخذ أبناء القبيلة يلحون على شيوخ عشائرهم بوجوب لم الشمل بينهم، لكن كانت هذه الرغبات تقابل بصدود من الشيوخ الذين رأوا أن أي تقارب بين أبناء القبيلة يمكنه أن يقلل من سطوة سلطانهم. إلا أن هذا الإلحاح الدؤوب جعل الشيوخ يبحثون عن مخرج لهم تجاه هذه الرغبة، يحفظ لهم مكتسباتهم في إقطاعياتهم، ويشغل أبناء العشائر عن التفكير في مطالب أخرى.

على أثر ذلك قرر المشايخ عقد لقاء لهم يجمعهم لأول مرة بعد تفرقهم. وأرادوا أن يظهروا أمام أبناء عشائرهم رغبتهم في التمسك بعادات القبيلة ومثلها ومظاهر عيشها، فأعلنوا أنهم سيجتمعون في وسط الصحراء، أرض آبائهم وأجدادهم وهو ما يؤكد انتماءهم إلى قبيلتهم.

أقبل شيوخ العشائر في اليوم الموعود متجهين إلى خيمة في الصحراء مهد القبيلة الأول. ركب أغلبهم السيارات التي أنتجتها الحضارة الحديثة، لكن بعضهم أوغل في تصنع الانتماء إلى القبيلة فركب ناقته، وبعضهم الآخر أتى على ظهر حصان. واصطحب كل منهم جمعاً غفيراً من رجاله، يحملون أكثر من أوزانهم أسلحة وذخائر مما أثار حفيظة بعض أبناء القبيلة الذين حضروا الاجتماع. وتساءلوا: هل جاء هؤلاء الشيوخ للم الشمل أم للحرب؟

لكن هذا التساؤل وئد مع الرغبة في الوصول إلى حل للتشرذم.

نحرت النوق؛ إظهاراً لكرم القبيلة التي عرفت به، وأولمت الولائم إكراماً لشيوخها. وقبل أن تبدأ الاجتماعات اشترط رؤساء العشائر بالإجماع أن تخلو الخيمة وما حولها إلا منهم؛ حفاظاً على سرية قراراتهم من أن تصل إلى أسماع القبائل الأخرى، وتم لهم ذلك فخرج جميع أبناء القبيلة واستبقى كل شيخ بعض الأفراد المقربين معه. وبدأت الاجتماعات. فأستأنف الشيخ أبو أيمن الحديث فرحب بالجميع ثم قال:

- **إخواني أصحاب السلطان، تعرفون -رعاكم الله - أهمية هذا الاجتماع، وسبب إحاطته بالسرية...! إنه اجتماع يقوم مصير قبيلتنا عليه.**

رد الشيخ أبو سعد بشيء من الحدة:

- **ما دمت حريصاً على السرية، فلماذا أحطت نفسك في هذه الخيمة بأكثر من عشرين رجلاً، ما بين حارس ومرافق؟ ألم يكن في الإمكان الاستغناء عن هذا العدد من الحرس؟**

قاطعه الشيخ أبو فخري:

- **ألم يكن معك يا أبا سعد أعوان وحرس؟**
- **بلى، إلا أنهم أقل في العدد والعدة، فهم لا يتجاوزن الخمسة.**

قاطع الشيخ أبو فصيح الجميع:

- **دعوكم من العدد قل أو كثر، لكننا نرى وجوهاً من خارج القبيلة! فلماذا أبقيتموهم معنا في هذا الاجتماع السري؟**

وجم الجميع، فالتزم بعضهم الصمت في حين شاع الهرج والمرج عند بعضهم الآخر. فقام الشيخ أبو الحكم لينهي هذه الحالة من الاختلاف التي قد تودي بالاجتماع، فينفض إلى غير رجعة..

- **اجتماعنا هذا مصيري، ويزيد من لم الشمل على أسس سليمة تتخطى عثرات الماضي، وتنشد المستقبل الأفضل لجميع أبناء القبيلة؛ لهذا فإني بحكم معرفتي بكثير من ظروف إخواني مشايخ العشائر، أعرف أنهم قد أحضروا عدداً من المستشارين، لهم باع طويل في الحكم والفقه من أجل الاستفادة من آرائهم في الوصول إلى حلول عملية لوضع قبيلتنا.**

هز الجميع رؤوسهم مؤيدين توجيه الشيخ أبي الحكم لهذه المسألة، فعاد الشيخ أبو أيمن للحديث:

- **إن هناك رغبة أكيدة لدى أبناء القبيلة في لم الشمل والانضواء تحت شمل شيخ واحد.**

رد الشيخ أبو المكارم:

- **تعرفون أن هذه الرغبة تلح علينا جميعاً، إلا أن لكل عشيرة مصالح خاصة تمنع من تحقيق ذلك.**

انبرى الشيخ أبو سعد للحديث مؤيداً ما قاله الشيخ أبو المكارم:

- **لقد تفرقت عشائرنا وأصبح لكل عشيرة طبائع تختلف عن طبائع العشيرة الأخرى؛ ولهذا فإن عشيرتي لن ترضى بمثل هذا الرأي.**

أخذ طرف الحديث الشيخ أبو فخري:

- **إن عشيرتي كما تعرفون فيها كثير من الموالي، وهؤلاء، بالرغم من انتمائهم إلينا، إلا أنهم لن يرضوا أبداً بانتماء قبلي أكبر من الانتماء العشائري.**

قال الشيخ أبو الحكم:

- **يظهر من قولكم أن هناك موانع كثيرة وكبيرة تمنع من الانضواء تحت قيادة شيخ واحد للقبيلة، لكنكم أيضاً نسيتم أمراً أهم من ذلك كله، ألا وهو توجه القبائل المجاورة لنا - فهي لن ترضى لنا بإقامة تجمع قبلي كبير، إذ تخشى على مصالحها عندما تتحد القبيلة تحت رئاسة شيخ واحد.**

همس أحد المعاونين في أذن الشيخ أبي المكارم، فقاطع الشيخ أبا الحكم:

- **لقد تكلمتم في القبائل الأخرى بما لا يجوز لمجلسكم الخوض فيه، ولهذا فإني أطلب من الشيخ أبي الحكم الاعتذار عما قاله، وسحب حديثه.**

عاد الهرج إلى الاجتماع، ثم خلصوا إلى أن يبقى ما قاله أبو الحكم في حق القبائل المجاورة معلوماً للجميع، لكنه يحذف من مضبطة اللقاء، فوافق الجميع على ذلك. وعاد أبو الحكم إلى الحديث:

- **ما دام أن اجتماعكم على شيخ واحد غير ممكن كما يظهره حديثكم فلا بد من البحث عن صيغة أخرى تحقق رغبة أبناء قبيلتنا.**

قام الشيخ أبو سعد متحدثاً:

- **إن تحقيق رغبات أبناء عشائرنا أمر غير ممكن بأي حال، ونحن ولاة أمرهم، فما نراه يصلح أمرهم في دينهم ودنياهم نأخذ به، حتى ولو لم يحقق ما يريدونه.**

ثنى الشيخ أبو الفوارس على كلام الشيخ أبي سعد:

- **إن أبناء عشيرتي لا يعرفون مصلحتهم ولا أحسب الجميع إلا كذلك؛ لهذا لا يؤخذ رأي أبناء القبيلة بأكثر مما يجب.**

اعترض الشيخ أبو الحكم غاضباً:

- **إذن لماذا اجتمعنا هنا إن لم يكن يهمنا رأي أبناء قبيلتنا..؟**

انبرى الشيخ أبو أيمن لفض الاشتباك:

- **تكبدنا المشاق بالمجيء لتحقيق رغبات أبناء عشائرنا، وهذا أمر مفروغ منه، وليس مدار النقاش ، وما قاله أخواي الشيخ أبو الفوارس والشيخ أبو سعد لا يعدو هذه الحقيقة، فما دمنا قد جئنا ممثلين لأبناء عشائرنا فإن الرأي الذي نقول به، لا بد أن يكون في مصلحتهم ، وعليهم القبول به.**

أمن الجميع على قول الشيخ أبي أيمن. وعاد الحديث إلى الشيخ أبي الحكم فأراد ألا يترك الأمر يمر دون أن يهمز بعض المشائخ في مشروعية تمثيلهم لأبناء القبيلة:

- **قبل أن أطرح مقترحي في شأن لمِّ الشمل، بودي أن أتساءل عن مدى مشروعية تمثيل المشايخ لأبناء عشائرهم.**

لم يتأثر بعض شيوخ العشائر بتساؤل الشيخ أبي الحكم، الذي صيغ بطريقة غير مباشرة. لكن الأمر لم يكن كذلك مع البقية، فاجتاحت الخيمة موجة من الاحتجاج العنيف، وهم المشايخ بالانصراف وكاد الاجتماع ينفض، فتدخل الشيخ أبو فصيح راجياً الجميع ترك ما يفرق، والبحث عما يؤلف بين المشايخ، لكنهم أبوا العودة إلا بعد تحويل الحديث عن الشيخ أبي الحكم، فتم لهم ذلك.

أخذ زمام الحديث الشيخ أبو فصيح:

- **يقول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ولن تقوم للقبيلة قائمة ما لم نكن متحدين ، نصدر في أمورنا عن رأي واحد أمام القبائل الأخرى؛ ولهذا فإني اقترح إنشاء مجلس للقبيلة تمثل كل عشيرة فيه بشخص من أبنائها وتطرح في هذا المجلس مشكلات القبيلة، ويبحث عن حلول لها.**

جرت همهمة بين الشيوخ وتحدث الشيخ أبو أيمن قائلاً:

- **ومن يمثل العشيرة في هذا المجلس؟ وهل ما يصل إليه الأعضاء من قرارات يكون ملزماً للعشائر كلها؟**

أجاب الشيخ أبو فصيح:

- **يمكنكم تحديد من يمثل العشيرة، فقد يكون شيخها أو من ينيبه، ولا بد أن تكون قراراته ملزمة لجميع العشائر.**

هب الشيخ أبو سعد غاضباً:

- **هذا آخر زمن، نأتمر بأمر غيرنا!**

رد الشيخ أبو فصيح:

- **لن تكون آراء المجلس آراء غريبة، بل ستكون آراء ممثلي العشائر وهم منا ويتكلمون بهمومها.**

- **أأتمر بأمر لم أقبله وأوافق عليه؟!**

- **هو رأي الأغلبيـــة في المجلس، وهو أولاً وآخـــراً من أبناء قبيلتنا، ومصلحة الجميع تهمهم.**

قال الشيخ أبو الفوارس:

- **لا يمكن القـبـول بهـذا الرأي، ولو قـبلنا به، فكيف نكون شيوخاً على عشائرنا؟**

قال الشيخ أبو سعد:

- **إن قبلتم بمثل هذا الرأي فإني سوف أرحل الآن.**

قام الشيخ أبو المكارم بوصفه القائم على ضيافتهم ، وأنهى حالة الاختلاف برفض الاقتراح، على أن يتقدم الشيوخ باقتراح آخر. أشار أبو أيمن بأن لديه اقتراحاً يريد طرحه، فقال بهدوء من يعرف طبيعة المرحلة:

- **إنكم تعرفون أننا أبناء قبيلة لا ترضى بأن يتدخل أحد بشؤونها أو شؤون أبناء عشائرها، ولهذا فإن اقتراحي، وإن كان بسيطاً إلا أنه عملي ويتناسب مع المرحلة الراهنة في حياة قبيلتنا، ويلائم أوضاع كل عشيرة على حدة.**

اشرأبت الأعناق لاقتراح الشيخ أبي أيمن وأنصتت لسماع ما يقول، فأردف قائلاً:

- **إن مثل اقتراح الشيخ أبي فصيح فيه اعتداء على حقوق كل شيخ فعارضه بقية المشايخ؛ لهذا فأرى أن نبتعد عن أي**

اقتراح يكون فيه تدخل في شؤون العشائر الأخرى. وعلى هذا أقترح أن نعقد اجتماعاً سنوياً يلتقي فيه مشايخ عشائر القبيلة وتستضيفهم إحدى العشائر كل عام. ويكون هذا الاجتماع فرصة يسري بعضنا بعضاً، فلا تجفو النفوس بسبب البعد وعدم التلاقي. ويمكن خلال هذه اللقاءات الأخوية أن نطرح بعض مشكلاتنا مع القبائل الأخرى؛ لنستنير بآراء إخواننا من شيوخ العشائر.

هلل أكثرية المشايخ لهذا الاقتراح ورأوا فيه فتحاً كبيراً في شأن القبيلة، لكن قلة منهم رأت أن مثل هذا الاجتماع لن يحقق أي شيء من لمِّ الشمل؛ ولذلك لا يستطيعون العودة إلى عشائرهم بمثل هذا المشروع.

طلب الحديث الشيخ أبو الحكم فلم يؤذن له إلا بعد تعهده بأن يراعي مشاعر إخوانه من مشايخ القبيلة في عرض ما يريد. واستهل حديثه بما يشبه الاعتذار وإن كان يحمل في طياته كشف الحقيقة التي يتوارون عن التصريح بها:

- **أود أن يدرك كل شيخ منكم أن ما قلته كان بدافع الحرص على مصلحتنا جميعاً، فمصالحكم من مصلحتي، وإن ما يجري على أحدنا يجري على الآخر، لهذا يحسن بنا أن نقف مع بعضنا وقفة مصارحة تحمي مصالحنا قبل أن**

تحمي أي أمر آخر، ولهذا أود أن أوضح بعض الحقائق التي تعرفونها. ولكن حتى تكتمل الصورة ما أمكن. أود أن أذكركم بما عملته القبائل الأخرى بقبيلتنا، حيث قسمتنا أشلاء، وسامت أبناء عشائرنا سوم العذاب، ولم تستطع أغلب عشائرنا التخلص من تلك القبائل الغازية إلا بدفع أبنائها في وجوههم، مما أهلك كثيراً من أبنائنا دفاعاً عن أراضي القبيلة، وتعلمون أن خسائرنا بسبب حربنا مع تلك القبائل الغازية لم ينته بعد. وما فعلته قبائل الشمال في تاريخ قبيلتنا معروف لا يحتاج إلى بيان. ولم يكتفوا بهذا بل اقتطعوا من خير أراضينا جزءاً أهدوه إلى قبيلة أبي داوود، ولم يكن لتلك القبائل أي حق في أرضنا التي ورثناها عن أجدادنا، ومع ذلك الظلم فإننا بسبب تشتتنا فشلنا في أن نسترد ما اغتصب منا. ولهذا كله يجب علينا أن ننظر إلى الموضوع بصورة أكثر جدية، إذ الأمر يتعلق بوجود القبيلة بكاملها من عدمه.

قاطعه الشيخ أبو الفوارس:

- ما بالك اليوم يا أبا الحكم تبدو وكأنك واعظ لأناس غفلة، أو ترانا غير معنيين بالقبيلة وأنت الحريص وحدك على مصالحها؟

وأردف الشيخ أبو فخري:

- **كلنا يهمه أمر القبيلة، وإلا لما اجتمعنا هذا اليوم.**

قاطع أبو المكارم الجميع:

- **وعدنا أبوالحكم بطرح اقتراحه، فمالكم وقفتم أمامه قبل أن نسمع منه ما يريد؟**

عاد الشيخ أبو الحكم للحديث:

- **يبدو أنكم تصابون بحساسية شديدة لرأيي حتى قبل أن تسمعوه، ومع ذلك فإني سأواصل حديثي، فمهمتنا أعظم من أحاسيسنا.**

توقف برهة والتقط أنفاسه ثم قال:

- **اقتراحي يا مشايخ يقوم على إبقاء حقوق المشايخ على حالها في عشائرهم، على أن تختاروا من بينكم شيخاً له الكلمة النافذة على الجميع في أمور كبرى تهم القبيلة وعلاقاتها مع القبائل الأخرى.....**

وقبل أن يكمل حديثه، قاطعه الشيخ أبو سعد:

- **أو تمني نفسك يا أبا الحكم أن تكون شيخاً للقبيلة، فنأتمر بأمرك؟!**

- **ليس هذا من مطامحي يا أباسعد، فأنت تعرف أني أرغمت**

على أن أكون شيخاً لعشيرتي، حين سفك الآخرون الدماء في سبيل مشيخة هزيلة جاءت صنيعة لقبائل أخرى!!

ساد الجمع الوجوم المنذر بالانفجار؛ مما جعل الشيخ أبو المكارم يتدخل بالقول:

- **استعيذوا بالله من الشيطان أن يدخل بينكم.. ما لكم لا تريدون جمعنا ينفض على خير.**

ثم أردف قائلاً:

- **أكمل يا أبا الحكم ودعك مما يفسد النفوس والتزم بوعدك لنا..**

عاد الشيخ أبو الحكم ليعرض مقترحه:

- **سيكون لشيخ كل عشيرة الأمر والنهي في عشيرته، كما سيكون لرأيه أهمية في إنجاز القرارات الجماعية الكبرى التي تهم عموم القبيلة، على أن يكون لشيخ القبيلة - بعد مشورتكم - الحق في اتخاذ القرارات المهمة في وجود القبيلة. إننا لو قبلنا هذا المقترح سوف نبقي على حقوقنا في عشائرنا غير منقوصة، وفي الوقت نفسه سيكون لقبيلتنا صوت واحد مؤثر تهابه القبائل الأخرى فلا تسول لها نفوسها الاعتداء علينا أو اغتصاب شيء من أراضينا.**

ثم ختم اقتراحه وهو يلهث:

- **هذا هو موجز اقتراحي. لكن قبل أن تتخذوا أي قرار في هذا الشأن، تذكروا أنكم مسؤولون أمام الله ثم أمام أبناء قبيلتكم، فامضوا فيما ترون..!**

وجم الجميع، ولم يعلق أحد بشيء، ولكن لم يظهر على سكوتهم أنه علامة رضى. قطع الصمت الشيخ أبو المكارم:

- **لقد أصابنا كثير من النصب، وحديثنا قد يطول، ويمتد، فهيا إلى العشاء، لعلنا نستعين به على إنجاز مهمتنا.**

قام الجميع إلى وليمة العشاء التي أقامها الشيخ أبو المكارم، وما إن أصابوا منها حتى ألجمت ألسنتهم عن الحديث فأخلدوا إلى النوم.

في يوم غد، وبعد الظهر حضرت بعض الوجوه الغريبة عن القبيلة، واجتمعت مع الشيخ أبي المكارم والشيخ أبي سعد ثم اختفوا عن الأنظار بعد ذلك.

لم ينعقد اجتماع مشايخ القبيلة إلا في المساء، وافتتح الاجتماع الشيخ أبو المكارم حامداً الله مصلياً على نبيه، ثم ثنى بالحديث على مقترح الشيخ أبي الحكم، شاكراً له مقترحه الطموح إلا أنه نبه إلى خطورة الأمر، مذكراً أنه قد وصلت بعض رسل القبائل الصديقة تحذرهم من المضي في مقترح مثل مقترح أبي الحكم، لهذا يرى بحث الموضوع بحذر.

أخذ الشيخ أبو الحكم الحديث فقال متسائلاً:

- **من أخبر القبائل الأخرى باجتماعنا هذا، ونحن في صحراء قفر؟!**

أحس الشيخ أبو المكارم أنه المعني بهذا التساؤل، فقال:

- **الأمر ليس خافياً على أحد، ووسائل البرق انتشرت في أرجاء أرضنا...**

- **أو لم يكن مجلسنا في صحراء قصية، فأين وسائل البرق؟ وإذا وجدت، فهي لنا، فمن يتصرف بها حتى تنقل أخبارنا إلى القبائل الأخرى؟**

قاطعه الشيخ أبو أيمن:

- **علينا الحذر في كل أمر، فما لا يصل اليوم إلى القبائل الأخرى يصل غداً، وأكد القول أبو سعد محذراً:**

- **لهذا علينا التأدب في أي حديث يمس تلك القبائل.**

عاد الشيخ أبو الحكم إلى الحديث:

- **لا يهمنا الآن من سرب الخبر إلى تلك القبائل، وإنما السؤال الملح عليكم في اجتماعكم هذا هو، ما رأيكم في ما طرحته من اقتراح؟**

اهتبل الشيخ أبو المكارم فرصته للحديث فقال:

- **يبدو أن الجميع غير موافق على الفكرة إما لصعوبة تحقيقها أو لخطورتها.**

- **أو تتكلم يا أبا المكارم بالنيابة عنهم وهم حضور؟ هل أوكل إليك أمر الحديث عن هذا المقترح.**

- **لا، لا، لكن الأوضاع المحيطة، وما أعرفه منهم من أحاديث جانبية تؤكد ما أقوله.**

- **لنر الأمر منهم، وليصدح كل الحاضرين برأيه.**

أجاب الجميع بصوت واحد، أن المقترح مرفوض. فانزوى أبو الحكم في ركن قصي من المجلس، يرقب الحضور وهم يطرحون مقترحاتهم. قال الشيخ أبو فخري:

- **يبدو أن لمَّ شمل القبيلة قد أصبح صعباً؛ نظراً لاختلاف مشارب أبناء العشائر وتعدد آرائهم؛ لهذا فإن اجتماعنا تحت لواء قبيلة واحدة أصبح حلماً على الأقل في الفترة الراهنة، ولهذا فإني أطرح اقتراحي مراعياً هذه الظروف، ومستجيباً لظروف الفترة التي نعيشها.**

تنحنح الشيخ أبو فخري، ثم أكمل حديثه قائلاً:

- **يمكننا أن ننشئ رابطة تجارية بيننا توحد تعاملاتنا الاقتصادية، نستطيع من خلالها استثمار أموالنا، وإن**

القوة في هذا الزمن هي قوة المال، ولعلنا نستطيع تحقيق لم الشمل عن طريق المال إن لم نستطع عن طريق السياسة.

أمن الجميع على كلام الشيخ أبي فخري، وأخذ المجتمعون يتساءلون عن كيفية تحقيق مثل الاقتراح الذي يكفيهم شر لم الشمل الذي ينادي به أبناء قبيلتهم. انبرى الشيخ أبو فخري يوضح فكرته قائلاً:

- **ننشئ شركة للقبيلة تشارك جميع العشائر في رأس مالها، وعن طريق هذه الشركة العملاقة يمكننا تحقيق الرفاهية لأبناء القبيلة، وبعد أن تجري الأموال في أيديهم، فإنهم سينسون حلمهم في لم الشمل.**

تكلم بعد صمت طويل الشيخ أبو الحكم بكلام مقتضب:

- **هل جاع أبناء القبيلة من قلة الأموال التي تملكها العشائر؟**

ولم يجبه أحد. ومر التساؤل وكأنه لم يسمع. اعترض الشيخ أبو أيمن على رأي الشيخ أبي فخري قائلاً:

- **وهل نجعل أموالنا في أيدي أناس يتصرفون فيها فيضيعونها؟**

رد الشيخ أبو فخري بشدة:

- **أو لم تجعل أموال عشيرتك يا أبا أيمن عند قبيلة أخرى تبيع فيها وتشتري؟ فلماذا أمنت تلك القبيلة، ولا تأمن أبناء قبيلتك؟**

لم يجب الشيخ أبو أيمن، إلا أن أبا سعد قال:

- **إن عشائرنا في حاجة إلى هذه الأموال فلدينا من الجياع وذوي الحاجة الكثير، ونريد أن ننفعهم بهذه الأموال الآن، وندع الاستثمار لغيرنا، وكما يقول أبناء القبيلة: أشبعني اليوم وأجعني غداً!!**

ورغم هذه الاعتراضات على المقترح، إلا أنه حظي بالقبول من أكبر عدد من المشايخ، إذا رأوا أن الاستثمار بأموال عشائرهم أخف ما يمكن الخروج به من الخسائر في هذا الاجتماع. لكن المقترح لم يحظ بقبول الجميع، فأعاد الشيخ أبو فخري طرح مقترحه بصورة مخففة فقال:

- **إذا لم ترغبوا في الاستثمارات الكبيرة فلا أقل من استثمار محدود يجمع أبناء القبيلة عليه، ويرونه شيئاً من أملهم في لم الشمل...**

قاطعه الشيخ أبو المكارم:

- **أفصح عما تريد يا أبا فخري، ودعك من عموميات القول، لقد مللنا من هذه المثاليات..**

- **إنني أقترح أن تستثمر القبيلة بجميع عشائرها في سفينة عملاقة تمخر البحر بالبضائع والركاب، فمنها تكون لنا تجارة رابحة، ومنها تكون لنا شركة تجمع عشائر القبيلة في ملك موحد بينهم، ثم هي خير ما يمثل القبيلة، وتستفيد من خدماتها جميع أبناء عشائر القبيلة.**

نظر الجميع بعضهم إلى بعض، وابتسامة الفرح تعلو وجوههم، وكأنهم وجدوا حلاً سحرياً للغز صعب، أفسد عليهم حياتهم. لهذا جاءت الموافقة على هذا المقترح من جميع الحاضرين حتى إن الشيخ أبا الفوارس أخذ يهزج مردداً قول الشاعر:

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت، وكنت أظنها لا تفرج

(٣)

كانت نتائج اجتماع رؤساء العشائر مخيبة لآمال أبناء القبيلة، إذا لم يروه محققاً لأدنى مطالبهم التي تعهد شيوخهم بها، وتناولتها وسائل الإرشاد والأنباء في القبيلة.

وحاول بعض أبناء العشائر الذين رأوا الأخطار تهدد قبيلتهم - إن لم يعملوا على تدارك الأمر- بزيارات متعددة لمشايخهم، لكن

كانت استجاباتهم سلبية، إذ كان الشيخ يعتذر لهم عن طريق رجاله بعدم استطاعته مقابلتهم؛ لانشغاله بقضايا أكبر تخص شؤون العشيرة!

في عشيرة أبي سعد لم يستطع أبناؤها السكوت على هذا الأمر فنظموا مسيرات حاشدة في المدن والقرى وبين الخيام في الصحراء. وكان لهذه المسيرات أثرها في تحريك أبي سعد للقاء وفد من أبناء عشيرته.

تحدث الشيخ أبو سعد للوفد قائلاً:

- **تعلمون - سلمكم الله - أني أحرص منكم على مصلحة القبيلة بجميع عشائرها، لكن كما تعلمون ليست آرائي المحتفية بلم الشمل مرضية لدى أغلب المشايخ، ويعلم الله أنني بذلت ما أستطيعه للوصول إلى رأي يرضى به الجميع، ولهذا اكتفينا بما وصلنا إليه على أمل أن يكون بادرة خير لما يأتي، فليس مشروع السفينة هو النهاية بل البداية، إن شاء الله.**

استأذن أحد أعضاء الوفد في الحديث:

- **يا صاحب السلطان، نحس بغصة لخيبة أملنا في مشروع لم الشمل، فهل العودة إلى جمع الشمل بين عشائر القبيلة أمر أمامه عقبات لا تستطيعون تذليلها، وأنتم أهل الحل والعقد في قبيلتنا؟**

obeikandl.com

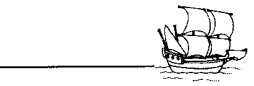

- **هل تتوقعون أننا نقدر على كل شيء؟!! إن القادر على كل شيء هو الله جل شأنه، أما نحن فبشر تقف أمامنا أمور تعرفونها، وأمور لا تذكر لكم...!! ثم إني قد نافحت عن مطالب أبناء القبيلة في لقائنا، لكن العقبات أكبر من أن تذلل.**

طلب الحديث شخص آخر في المجلس:

- **إن جهودكم مشهودة، ولا نستطيع تحمل ما تحملونه من أعباء في سبيل صلاح أمرنا في هذه العشيرة؛ لهذا فليس لنا في هذا الموقف إلا الدعاء لكم بطول العمر.**

ثم أشار آخر بطلب الحديث:

- **إن جهدكم يا صاحب السلطان غير منكر، وإننا لم نأت هذا اليوم للتذكير به، ولكننا جئنا لنندد بقرار إنشاء السفينة الذي لا يحقق أقل آمالنا، ولهذا فإننا نناشدكم يا صاحب السلطان بمعاودة البحث في الموضوع وتقديم التنازلات مع إخوانكم مشايخ القبيلة في سبيل الوصول إلى حل عملي لجمع شمل عشائرنا.**

أبدى صاحب السلطان الشيخ أبو سعد امتعاضه من الحديث، فاستأذن بعد أن تعذر بتوعكه، وهمس في أذن أحد رجاله، ثم مضى...

قام رجال الشيخ بتوزيع ظروف على الحاضرين، فعلت الابتسامة وجوه بعضهم، لكن أغلبهم قد علته علامات الخيبة من هذه المقابلة التي لم تقدم لهم إلا مزيداً من الإحباط. خرج الجميع في صمت، ما بين مبتسم باش، وآخر يجر أذيال الخيبة.

وفي مدينة المنصورة في عشيرة أبي أيمن قامت مسيرات سلمية كبيرة شملت البوادي والحواضر، إلا أن الشيخ أبا أيمن لم يسمح لهذه المسيرات بأن تتم، بل أرسل إليها كتيبة من الحرس الخاص استطاعت أن تبدد رجال المسيرات، وتفرق الناس.

وخرجت وسائل الإرشاد والأنباء في الغد تندد بأصحاب المسيرات وتتهمهم بعدم ولائهم للعشيرة. كما شهد كثير من الثقات لدى الشيخ بأنهم رأوا ضمن هذه المسيرات كثيراً من رجال القبائل الأخرى؛ مما يؤكد أنها مسيرات مدبرة من الأعداء للإخلال بالأمن في العشيرة.

وفي مدينة الروضة من أرض أبي الفوارس، قامت مجموعة من رجال العشيرة بنشر عريضة موجهة للشيخ تبين فيه عن رغبة أبناء العشيرة الملحة بإصلاح الوضع في العشيرة، وأولى مطالبها كان التعاون مع العشائر المجاورة، وبالذات عشيرة أبي الحكم في تطوير الخدمات الكهربائية، والمطالبة بترشيد استهلاك الماء؛ لأنها ثروة تخص جميع أبناء القبيلة، فلا يحسن تبذيره من بعض الأفراد دون

أي إحساس بالمسؤولية... لكن هذه العريضة وقعت موقع السهم في نفس الشيخ أبي الفوارس الذي لم يعتد على مثل هذه العرائض التي تتعدى حدودها وتتجرأ على ما لا علم لها به؛ لهذا أراد أن يكون رده عليهم رادعاً لهم ولأمثالهم، فعزل أبا البهاء عن إمامة المسجد الجامع في المدينة، وفصل أحمد عبدالمعطي من مدرسته التي كان يدرس فيها. في حين صادر مزرعة أبي هيثم وطرده وأولاده منها، وأطلق رجاله النار على إبل أبي جوشن وهي ترعى في الصحراء. وأعلن في المدينة أن مقدمي العريضة ما هم إلا من جهال الناس ورعاعهم الذين غرر بهم حتى فعلوا ما فعلوه، ولولا رأفة صاحب السلطان الشيخ أبي الفوارس بهم لقتلهم؛ لأن ما اقترفوه كان بإمكانه أن يضر العشيرة ومصالحها.

وأخذ الأستاذ بيهان المعلم في المدرسة الثانوية العليا يقدم برنامجاً يومياً في الإذاعة يشخص فيه الأسباب التي أدت إلى قيام مثل هذه المسيرات والمطالب الشعبية، التي لم تعهدها القبيلة، وأرجع ذلك إلى خطباء المساجد الجامعة الذين ما فتئوا يستثيرون المشاعر القبلية، ويبثون في الناس روح الحماس إلى العمل لاستعادة أمجاد القبيلة. كما طالب بمراجعة الكتب الدراسية التي ما فتئت تذكر الناس بتاريخهم، وتغذي فيهم روح التفكير في دور فاعل لهم في الحياة، وهو أمر قد يكون له عواقب وخيمة لاسيما في وضع

القبيلة الراهن. وطالب شيوخ القبيلة بإيقاف المخيمات الصيفية التي يجتمع فيها كثير من شباب العشائر؛ لأنهم كثيراً ما يتدارسون أمور القبيلة وما يعرض لها من مشكلات، مع أن مثل هذه المخيمات ليست مكاناً لبحث مثل هذه الأمور.

وتحولت الاجتماعات أخيراً إلى أحاديث ثم إلى همس. وهكذا وئدت الفتنة في مهدها بسبب حكمة أصحاب السلطان...!!

(٤)

أوكل شيوخ العشائر إلى رجالهم المقربين أمر العمل على إنجاز مشروع شركة السفينة. وسارت الأعمال على قدم وساق في اجتماعات متتالية فيما بينهم، استطاعوا التوصل فيه إلى تحديد نصيب كل عشيرة في الشركة ورأس المال الواجب دفعه لبدء تنفيذ المشروع. وحدد اليوم الخامس من الشهر موعداً لعقد اجتماع ممثلي الشيوخ، وخبراء التجارة والهندسة في القبيلة لبحث الإجراءات الفعلية للتنفيذ.

عقد الاجتماع في مدينة السلام إحدى مدن عشيرة أبي فصيح وافتتح بآيات من الذكر الحكيم، أعقبه كلمة قصيرة لراعي الاجتماع صاحب السلطان الشيخ أبي فصيح. قال فيها:

- **إن عملكم معشر الخبراء مسؤولية عظيمة في هذا المشروع**

obeikandl.com

التاريخي للقبيلة؛ لهذا فإني أحثكم على وضع خطوات إنجازه في أرقى صورة لها، واعلموا أنكم في هذا المشروع كمن يتهجد في الليل؛ لأهمية هذا المشروع في حياة القبيلة والدفاع عن قيمها الكريمة. وإني أنقل لكم تحيات إخواني أصحاب السلطان، كما أنقل لكم وصيتهم لكم بوجوب الاخلاص في جميع خطوات المشروع، وعدم النظر إلى أي أمر ليس فيه مصلحة المشروع الخاصة، فالمشروع هو الأصل في عملكم، وما عدا ذلك فلا تنظروا إليه. وها نحن نضع المسؤولية في أعناقكم، وهي أمانة عظيمة أعانكم الله عليها.

خرج الشيخ أبو فصيح من الاجتماع بعد إلقائه كلمته وترك المجلس لممثلي المشايخ وخبراء المال والأعمال في القبيلة. ترأس الاجتماع بعد ذلك ممثل الشيخ أبي فصيح السيد خلفان. استهل حديثه قائلاً:

- **إخواني ممثلي أصحاب السلطان، إخواني خبراء المال الأعمال، حسب توجيهات أصحاب السلطان فإن مهمتنا تنحصر في تحديد ثلاثة أمور: الصياغة القانونية لعقد الشركة، تحديد المكتب الهندسي المشرف على المشروع، وتحديد الشركة الصانعة. فلنبدأ على بركة الله اجتماعنا.**

قام أحد الخبراء متحدثاً فقال:

- **إن تحديد مثل هذه الأمور يحتاج إلى دراسة للعطاءات المقدمة من مكاتب المحاماة، والمكاتب الهندسية.**

وأردف المهندس توفيق الحديث بقوله:

- **وعلى ضوء خبرات هذه الجهات يتم تحديد الشركة الصانعة بناء على عطاءاتها وإمكانيات التصنيع و...**

قاطعه السيد ضاحي، ممثل الشيخ أبي المكارم:

- **يبدو أنكم يا معشر الخبراء أسباب تأخرنا في كل أمر، فما يبدأ عمل إلا وتعرقلونه بمطالبكم التي لا تنتهي.....!**

عاد المهندس توفيق موضحاً مطلب الخبراء:

- **إن إنشاء مثل هذه الشركة التي سوف تسيِّر مشروع السفينة لا بد له من إعداد مسبق، يسبر أبعاد الإمكانيات المتاحة، والميزانية المخصصة له، ولابد من وجود شركات هندسية استشارية تشرف على التخطيط للسفينة وتتابع مراحل التصنيع المختلفة. كما أن شركات التصنيع تتفاوت في تقنياتها و.....**

عاد السيد خلفان إلى المقاطعة قائلاً:

- **كل هذا نعرفه، بل ونعرف مالا تعرفه يا مهندس توفيق... إن لدينا معلومات مؤكدة عن كل ما يخص التكلفة المادية**

والإشراف الهندسي والشركة الصانعة..كل هذا معلوم لأصحاب السلطان، وقد زودوا به ممثليهم.

أخذ زمام الحديث الخبير المالي:

- **ما دام أن ذلك معلوم لدى أصحاب السلطان وممثليهم، فما دورنا نحن الخبراء والمهندسين؟**

رد السيد ضاحي ملطفاً حدة النقاش:

- **لا يمكن أن يتم الأمر إلا بكم، فأنتم الأصل في الأمور التنفيذية ومهما عرفنا من أمور فنية، فإنها لا قيمة لها بجانب علمكم وخبرتكم...! لكن ما نقصده أننا قد أرحناكم وتدبرنا الأمور قبل الاجتماع، وسيكون دوركم مراجعة الأمور الفنية.**

عاد السيد خلفان إلى الحديث:

- **وُزِّع عليكم الآن - يا معشر المستشارين القانونين - عقد إنشاء شركة السفينة، وعليكم مراجعة مواده هذا اليوم، وسنأخذ رأيكم النهائي بعد ساعتين من الآن.. ولهذا فعليكم مغادرتنا إلى القاعة الجانبية، وتدبروا أمر عملكم، واتركونا مع المختصين في الشؤون الهندسية والمالية.**

وعلى أثر ذلك خرج المستشارون القانونيون من القاعة. وأخذ زمام الحديث السيد هليل:

- لقد أوصاني سيدي صحاب السلطان الشيخ أبوفخري بالحرص على السلامة الهندسية؛ لهذا فقد أختار مكتب الدكتور ديفد شاروت للاستشارات الهندسية؛ ليكون ممثل القبيلة في متابعة التصنيع مع الشركة الصانعة.

رد المهندس مجدي:

- إن هذا المكتب من المكاتب الغريبة عن القبيلة، ولا نعرف مدى كفاءته.

وأكد هذا المهندس نجيب بالقول:

- بل هو من المكاتب المتهمة في عدائها للقبيلة، وتاريخه غير نظيف.

قاطعه السيد هليل وهو يضحك:

- يا مهندس نجيب، ماذا تقول؟! وهل هو ثوب حتى يكون نظيفاً أو متسخاً.... أضحكتني بقضية النظافة هذه...!

عاد المهندس مجدي للحديث:

- إننا نتحدث عن مشروع كبير لقبيلتنا، وقضيتنا فيها من الجد ما يمنع المزاح، على الأقل في هذه المرحلة الحرجة، ولهذا فإني أؤكد ما قاله زميلي المهندس نجيب. إن هذا المكتب غير كفء، وإضافة إلى ما ذكر عنه فإنه من قبيلة تكن لقبيلتنا العداء منذ زمن بعيد..

قاطعة السيد هليل بأن سعل ثم قال:

- **حيرتمونا يا من تدعون الثقافة والعلم والمعرفة، إن قلنا لكم ابتعدوا عن مخالطة أبناء القبائل الأخرى، قلتم هذه عزلة تضر بنا، وقد جربنا خطر العزلة على القبيلة، وإن أردنا أن ننفتح على القبائل الأخرى، ونشترك معهم في المصالح شككتم في كفاءتهم وذمتهم....!**

ثم انبرى السيد بداح إلى القول:

- **اتقوا الله أيها الناس، ولا تقولوا ما لا تعلمون. إن اتهام الناس دون بينة ظلم عظيم، وقد نهينا عنه في ديننا. ولهذا فإني أطالب المهندسين بإيراد بيانات على ما قالوا، وإلا فيجب القبول بمكتب ديفد شاروت، ولا داعي لإطالة الحديث في هذا الأمر. وعليكم الانتقال إلى بحث موضوع الشركة الصانعة.**

قال المهندس توفيق غاضباً:

- **لقد أخذ القرار في المكتب الاستشاري دون موافقتنا، ولهذا فإننا نخلي مسؤوليتنا من ذلك..**

قاطعه السيد هليل:

- **كن متفائلاً يامهندس توفيق، ودعك من الكلام الذي يضر أكثر مما ينفع..**

عاد المهندس توفيق إلى الحديث قائلاً:

- **ما دام الأمر كذلك، فيجب علينا الاختيار الدقيق من بين الشركات الكبرى الصناعية، ومن ثم دراسة إمكانياتها الهندسية، ومعي اليوم ثمانية ملفات لأفضل الشركات الصناعية المختصة في السفن العملاقة، وسوف أعرض أمامكم موجزاً عن كل شركة، محاولاً بيان مزايا كل شركة وعيوبها.**

بدأ المهندس توفيق باستعراض الشركات من البلدان الشرقية، لكنه ما بدأ في الشرح والبيان حتى قاطعه السيد بداح:

- **يبدو أن إخواننا المهندسين أخذوا شهاداتهم من الصحراء لهذا يعشقون ما هو بدائي!**
- **ما البدائية فيما ذكرته يا سيد بداح؟**
- **كيف يسمح لك علمك بأن تتجه إلى تلك الشركات البدائية في الشرق!**
- **وهل الشركات الصناعية العملاقة في تلك الأنحاء بدائية.**
- **وهل تقارنها بشركات الغرب..؟!**
- **إنها تتفوق عليها، والسوق التجارية للسفن العملاقة يؤكد ذلك، وعلى كل حال أنا لم أختر تلك الشركات بعينها، ولكن بدأت الاستعراض بها.**
- **دعك منها، فالعاقل البصير يعرف ضعفها.**

obeikandl.com

ثم التفت إلى زملائه من ممثلي أصحاب السلطان قائلاً:

- **هل الأصلي مثل التقليد؟ عجبي لهذا الزمان!**

ثم أردف قائلاً:

- **ما صنعته تلك البلدان التي تذكرها ما هو إلا تقليد للصناعة الأصلية، ولذلك لن نقبل - مهما كانت الأسباب - اختيار المقلد... تخط أسماء تلك الشركات، وعليك بالصناعات الأصلية.**

قاطعهم السيد فادي:

- **حفظاً لوقتكم الثمين، إخواني ممثلي أصحاب السلطان، وكذلك حتى نحصر مجال بحثنا، فإني أتقدم للمهندسين بملف (شركة وليم روف) وأرى حصر مناقشتنا في هذه الشركة.**

هلل الحاضرون من ممثلي أصحاب السلطان، وقالوا بلسان واحد:

- **هذه هي الشركة، ودعك من غيرها...!**

تكلم المهندس نجيب:

- **إن هذه الشركة عملاق صناعي لاشك في ذلك، ولكن ألا تعلمون أن لها علاقاتها المشبوهة مع تلك القبائل الشمالية التي مازالت أيديها ملطخة بدماء أهلنا وأبنائنا...**

عاد السيد فادي إلى الحديث قائلاً:

obeikandl.com

- فعلاً لقد سمعنا هذا كثيراً، لكنني التقيت في الشهر الماضي برئيسها الدكتور فوميل، وأكد لي أن ليس لهم علاقة ألبتة بتلك القبائل، ولهذا فاطمئنوا من هذا الجانب!

- وهل تأكيد الدكتور فوميل هذا لك يكفي.

- وماذا تريده أن يفعل؟ هل أطلب منه أن يأتي هنا ليحلف لك حتى تصدقه؟!

انبرى السيد خلفان بشهادته قائلاً:

- الحقيقة إن الدكتور فوميل رجل كفء، وفيه كثير من شيمنا، لقد لقيته من مدة طويلة... ورغم أن معرفته إياي كانت حديثه العهد إلا أنه أصر على إكرامي..!

تكلم السيد فيحان بعد صمت طويل:

- رجل به هذه الصفات لا نحسبه إلا صادقاً، ولا نزكي على الله أحداً..!

عاد السيد فادي للحديث:

- يظهر أن هناك موافقه من إخواني ممثلي أصحاب السلطان، وحتى أطمئن الإخوة المهندسين فإن الدكتور فوميل على استعداد لاستضافتهم في بلده؛ لتكونوا على مقربة من الرصيف الصناعي لشركته، ويمكنهم الإشراف المباشر على صناعة السفينة.

هلل السيد مناور قائلاً:

- **ما أكرم هذا الرجل!**

اندفع المهندس توفيق للحديث:

- **يبدو أنكم وافقتم على اختيار هذه الشركة، وتناسيتم القضايا الهندسية والفنية التي تقوم عليها صناعة السفينة.**

رد السيد فادي:

- **لا، لم ننس شيئاً مما تقول، ولهذا أوكلنا الأمر (لمكتب ديفد شاروت الهندسي الاستشاري)، ويمكنكم أيضاً الإشراف على مراحل التصنيع، والاستفادة من الإمكانات التي وفرها لكم الدكتور فوميل.**

وقبل أن يعود المهندسون لإثارة القضايا الفنية للتصنيع، اعتلى السيد خلفان المنصة وقال:

- **يبدو أن أمورنا تسير على ما يرام وهذا بتوفيق الله، ثم..... (توقف برهة ثم عاود الحديث) وهاهم خبراء المال والقانون قادمون من خلوتهم وسوف أترك الحديث لهم في حدود خمس دقائق.**

اعتلى المحامي المنصة، وأبدى امتعاضه من الدقائق الخمس التي أعطيت إياه، ثم قال:

- إخواني، لقد راجعنا عقد تأسيس الشركة المتضمن مسودة عقد تصنيع السفينة، ووجدنا أن به كثيراً من الثغرات القانونية التي يمكن أن تودي بالمشروع.

قاطعه السيد خلفان قائلاً:

- أود أن أنبهكم أيها الإخوان إلى أن المحامي يقول: يمكن، أي أن هذه الإمكانية تفترض السوء، ونحن في هذه القبيلة - ولله الحمد - نفترض حسن النية في الآخرين، ولهذا فأحسنوا النية في شركائنا دائماً...!

- وماذا لو حصل العكس، أي أن شركاءنا قد استفادوا من هذه الثغرات، وأضروا بنا..

- نحن الآن أمام حق واضح والنية الحسنة موجودة بين الجميع، ولو ثبت العكس كما تقول، فلكل حادث حديث..!

- يجب علينا بحث الأمور قبل أن تقع الفأس في الرأس، كما يقول المثل..

- ما لك يا أستاذ وهبي.. عدت شعبياً تستعمل الأمثال، وأنت تزعم أنك رجل علم لا تؤمن إلا بالحقائق...! وعلى كل حال سوف نحيل العقود إلى لجنة مختصة تقوم بمراجعتها مراجعة نهائية فطب نفساً، كل ما تريدون سوف يحصل.

عاد الأستاذ وهبي لمناقشة العقد:

- إن رأس المال الذي حدد للشركة وبالتالي لبناء السفينة مبالغ فيه.

علق السيد خلفان:

- السفينة عملاقة وسوف ترى ماذا تقدر شركة وليم روف تكاليف إنشائها، وإن كانت قد وعدتنا بإعطائنا أقل الأسعار، إلا أن سفينة بمثل طموحاتنا لا بد أن تكلف مبالغ طائلة، ولهذا يجب علينا الاحتياط للأمر.

- وهل القبيلة قادرة على تمويل رأس المال هذا؟

- يمكن للقبيلة الاقتراض من المصارف، فهي تعرض خدماتها علينا دائماً..

- إن كثيراً من أبناء قبيلتنا يأنفون من الاقتراض..

قطع السيد مناور الحديث وقال:

- تعني أنهم لا يرضون الاقتراض بفوائد؟

- تقريباً هذا هو ما أعنيه.

- هؤلاء يفتقدون العلم الشرعي في مثل هذا الأمر، وذلك أن القرض المحرم هو الربا.

- وما هو الربا إن لم يكن هذا؟

- إن القرض المحرم هو ما كان قرضاً نأكل منه ونشرب، أما في

حالتنا هذه فهو قرض للتجارة. كما أن الضرورات تبيح المحرمات. هذا في رأي من يراه قرضاً محرماً.

- **لن أفتي - على كل حال - في أمر لا أعرفه، لكن الدخول بالقبيلة في مغامرة كبيرة كهذه، تؤدي بها إلى الدخول في قروض كبيرة، قد تكون مهلكة لاستثماراتها الحالية واستثمارات الأجيال القادمة.**

تمتم ممثلو أصحاب السلطان إظهاراً للامتعاض من المناقشة، فأخذ زمام الحديث السيد خلفان، وقال مخاطباً جميع الحاضرين:

- **أشكركم على الحضور، وأحب أن أطمئن الجميع على سلامة المشروع والاستثمار فيه، وعلى أن هناك مجموعات من الخبراء الماليين والقانونيين، وكذلك لجنة هندسية ستراجع وثائق المشروع على ضوء آرائكم هذه. وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين.**

وهكذا تم الاجتماع بإقرار ما أريد إقراره مسبقاً بشأن السفينة وشركتها، وبدئ بالتنفيذ على عجل. طالب المهندسون والمحامون بضرورة الاطلاع على الوثائق النهائية للاتفاقيات مع الشركات الأجنبية، إلا أن طلبهم رفض بسبب السرية في الاتفاقيات الإستراتيجة. ولم يف أحد بوعده تجاه رقابة خبراء القبيلة على خطوات المشروع، ولم يمكنهم الدكتور فوميل من زيارة موقع الإنتاج في شركته.

(٥)

منذ بدء العمل في إنجاز مشروع السفينة، ما فتئت وسائل الإرشاد والأنباء في أغلب عشائر القبيلة تهلل بالفتح المبين الذي جاء بفضل تكاتف أصحاب السلطان على العمل الجدي لإنجاز مشروع السفينة، وتذكر مزاياها، وما جهزت به من وسائل الترفية قبل وسائل السلامة. ولم تخل الساحة من أفراد أبانوا عن عدم رضاهم عن المشروع بزعم أنه قام على أسس غير سليمة. وقد تكون كلفته أكثر من عوائده، إلى غير ذلك من أقوال أخذت تتناقلها الأفواه في المجالس والخيام. لكن هذه الأصوات كانت أقل من أن تسمع، خاصة بعد منعهم عن الاتصال بوسائل الأنباء في داخل العشائر. لكن هؤلاء لم يعدموا بعض الوسائل في نشر آرائهم إذ قام بعضهم بالخطبة يوم الجمعة، فأبان عن آرائه في المشروع، ووجه الناس لمعرفة ما يدور حولهم. لكن هذا الأسلوب قضي عليه بعد فترة وجيزة، إذ نبه أصحاب الغبطة أن المساجد ما جعلت لمثل هذه المهاترات، بل جعلت للعبادة، وأن أي صرف لها عن هدفها هو من الدعوى فيها بإلحاد، وهو ما تبرأ الأمة منه. وعمد بعضهم إلى ضرب الخيام في الصحراء، وأخذ يخطب الناس فيها، لكن رجال الشيوخ أوقفوهم لما ظهرت لهم المفاسد التي تجلبها تلك الاجتماعات!

وأدرك أصحاب السلطان أهمية المسجد والخيمة في إيضاح الحقائق للناس؛ لهذا جند كثير من الدعاة والمصلحين لإرشاد الناس وحثهم على الطاعة، وعدم منازعة الأمر أهلة.

كما طورت العشائر قطاعات الإرشاد والأنباء حتى أصبحت كل عشيرة تملك إذاعة خاصة بها تبث فيها البرامج التوجيهية. وتخصص كثير من المرشدين في فقه الطاعة، وحق الراعي على الرعية، وهو نفسه ما ثبت لأصحاب السلطان أهميته، وقصور أفراد العشائر في فهمه الفهم الشرعي. انطلق صاحب الغبطة حجة الدين الطاهر يخطب في الناس:

أما جاءكم خبر من كان قبلكم، لقد كانت الأمم السابقة تعيش في رغد من العيش حتى كفرت بأنعم الله. أتدرون ما كفرها؟ لعلكم تقولون إن الكفر هو عبادة غير الله أو الشرك في عبادته غيره...كلا والله، إن كفرها لم يكن كذلك، ولو كان كما تتصورون لعاقبها الله عقاب قوم عاد وثمود. لكن كفر من كان قبلكم كان التشكيك فيما يقوله ولاة أمرهم، والتقليل من أهميته؛ ولهذا جاء العقاب على قدر إثمهم، فعاقبهم الله بفقد الأمن والجوع والخوف، وهذا والعياذ بالله عقاب يكون فيه باطن الأرض أرحم من ظاهرها.

أليس قول الله، هو الحق الذي ليس بعده حق. لقد قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾. وإن النص الكريم لم يقيد الطاعة، بل جعلها على إطلاقها مما يؤكد أن الطاعة مطلقة في كل شيء وغير مشروطة. وهذا الإطلاق يشمل الطاعة في جميع درجاتها وعلى أوسع تكاليفها. وقد ترتب على هذا الأمر النهي عن أي شيء يخل بهذه الطاعة. فلا يسولن لكم أحد القول بأن الحديث عن مشروعات العشيرة أو أن التساؤل عما يفعله صاحب السلطان في تصريف أمور العشيرة لا يدخل تحت هذا الباب. فاحذروا من التهلكة في دينكم قبل دنياكم، و والله إن هذه الدنيا زائلة، وخيركم من أقبل على آخرته، وهو خفيف الأحمال. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

ومضت الحياة في العشائر ما بين أفراح لبعض أفرادها ووجوم عند بعضهم الآخر، وانتظار للمستقبل الذي لا يعرفون مآلهم فيه. وأقبل كثير من الجائعين في العشائر على التزود لآخرتهم وتناسوا دنياهم؛ لأنها دار ممر، كما أصبح معلوماً لديهم.

وانتشرت المزارع الواسعة ذات الآليات الحديثة والتقنيات الزراعية لبعض رجالات القبيلة، وأصبح لصاحب الغبطة حجة الدين الطاهر مزرعة منها، على الرغم من زهده في مثل هذه التفاهات الدنيوية. لكنه يدرك أيضاً أنه يجب عليه ألا ينسى نصيبه من الدنيا.

ومضت ثلاثة أعوام منذ توقيع العقد مع (شركة وليم روف) لصناعة السفن، وفي أواخر السنة الرابعة تسلمت القبيلة سفينتها الموعودة.

أقيمت الاحتفالات في ربوع القبيلة ورعاها أصحاب السلطان، شيوخ القبيلة، وخطبوا في أبناء عشائرهم مؤكدين فضلهم في إقامة هذا الصرح الحضاري الذي ما كان يتم لولا ما بذلوه من جهود وأموال وخبرات في مصالح العشائر. وأصدر صاحب السلطان الشيخ أبو أيمن أمره الكريم بتخصيص حافلة تقل أبناء عشيرته لزيارة السفينة وهي راسية في عرض البحر. وكان ذلك يوماً مشهوداً لأبناء العشيرة، فزار أحمد وعائلته الميناء مع بقية الأسر، فرأوا سفينة القبيلة وهي في أبهى صورة، تسر الناظرين. قالت أم أحمد لأبنائها:

- **لا أكاد أصدق أن هذه شيء يمكنه السير...**

وقال ابنها الأكبر بفخر:

- **لم تصنع هنا، بل جاءت تتهادى في عرض البحر حتى وصلت إلى الميناء، ولهذا عليك أن تصدقي أنها تسير...!!**

- **اللهم أعز شيوخنا، ما أعظمهم وأشد بأسهم..!!**

رد زوجها بعد تمعن طويل في السفينة الراسية:

- **هذه من مكرمات الشيخ أبي أيمن..**

obeikandl.com

- ولكنهم يشيعون في الإذاعة أن جميع الشيوخ قد شاركوا في صنعها... أعني في شرائها..أعني في... لا أدري..

- لأنك لا تدرين، أنا أدرى بالحقيقة منك..! لقد قال لي من يعرف بواطن الأمور إن الشيخ أبا أيمن هو من دفع الغالي وأمر بصناعتها.

- ولكن ما دامت عشيرتنا تملك هذه الأموال لصناعة مثل هذا الجبل، فلماذا لا يوسعون علينا في أرزاقنا؟

- اخفضي صوتك، وكفي يا امرأة، فما دفعه الشيخ من أموال لصناعة السفينة هو من حر ماله الخاص، وليس للعشيرة فيه شيء.

- نعم، فعشيرتنا فقيرة، لا يجد أبناؤها قوت يومهم.

قاطعهم أحد أبنائهم:

- ما تلك المقصورة العالية في أعلى السفينة؟

أجابت الأم:

- لعلها مقصورة شيخ السفينة الذي يقودها...! اسأل والدك فهو أدرى بهذا مني.

رد الوالد مباشرة:

- إنها مقصورة شيخنا - أعزه الله - في السفينة..

ضحك الابن الأكبر من قول والديه، ثم قال:

- **إن هذه غرفة القيادة، هذا ما يقوله لنا المعلم!**

جاء الابن الأصغر بعد طول نظر إلى السفينة من بعد، وقال:

- **أبي، أريد أن أركب السفينة.**

أجاب الابن الأكبر:

- **ومن أنت حتى تركبها، هل أنت من أبناء الشيوخ؟!!**

ردت الأم بامتعاض:

- **لا تزجر أخاك، فلعله يركبها يوماً من الأيام!**

رد الأب بصوت خفيض وبنبرة تحمل شيئا من الأسى:

- **ما أمر على الله ببعيد.. لكن.. لكن..**

عاجلته زوجته:

- **لكن ما ذا؟**

- **لكن العين لا تعلو على الحاجب.**

- **ومن العين ومن الحاجب؟ ألسنا أبناء قبيلة واحدة، ومن أصل واحد؟**

- **بلى، لكن بيننا السيد والمسود. وبيننا الغني والفقير.. هل نحن سواء؟**

obeikandl.com

- **ألم يقولوا إن هذه السفينة هي بداية لم شمل القبيلة، وإن لم شملها صلاح لأمر الجميع.**

- **هكذا قالوا، لكن لا ندري ما تخفيه لنا الأيام.**

وأخذ أبناء العشائر يعدون العدة لزيارة السفينة الراسية في الميناء، لكن ظهرت بوادر جديدة في الأفق ما كان يعهدها أبناء القبيلة. تساءل عويض:

- **لماذا تمنعنا عشيرة الشيخ أبي فخري من الذهاب لمشاهدة السفينة.**

رد عليه صاحبه سويدان:

- **إنها تقول إن مرور هذه الأعداد من العشائر المجاورة يفسد الحرث والأرض.**

- **أليست عشيرة أبي فخري من عشائر قبيلتنا.**

- **بلى، ولكن المصالح فرقت بين الناس.**

- **إن السفينة قامت في أصلها على رعاية مصالح القبيلة، فما لنا لا نرى مثل هذه المصالح التي لا تفسد إلا الآن؟**

- **لعلها كانت موجودة، ولكن لم نكن نعرفها، فما كنا نبرح أرض عشيرتنا.**

- **لكن أجدادنا يذكرون أنهم كانوا يقطعون الفيافي والقفار في أراضي القبيلة، ولا يسألهم أحد أين يذهبون..!**

- ذاك زمان ، وهذا زمان.
- وما الذي تغير؟
- تغيرت الدنيا كلها، أليست السفينة مظهراً من مظاهر التغير؟
- لكن ما ذنب السفينة في أن نمنع عن السير في أراضي قبيلتنا.
- لا ذنب لها، لكنها قد تكون نتيجة عمل سوء حل بالقبيلة.
- لقد فرحنا بهذه السفينة ورأينا فيها بقايا من أمل، لكن ما فعلته عشيرة أبي فخري أفسدت علينا فرحتنا.
- يقولون إن شيخ عشريتنا قد اتصل بأبي فخري وأنه سوف يحل المشكلة. هذا إذا كان أمر زيارة السفينة يهمك إلى هذا الحد.
- لم يعد يهمنا في شيء، لقد قتلوا الفرحة في نفوسنا.
- لقد ماتت الفرحة في نفوسنا منذ زمن بعيد، بل إنها قد ماتت قبل أن نولد.
- لماذا هذا التشاؤم؟
- لست متشائماً، وإن كنت أحس بسوء الواقع، لقد عرفنا في المدرسة ومن كتب التاريخ حال قبيلتنا في غابر عهدها، حيث كانت قوية منيعة، وعندما أراها مفرقة الآن مفرقة

obeikandl.com

الأشلاء، عشائر وشيوخ، تتكالب عليها القبائل من كل حدب وصوب، أحس بالألم يعتصر نفسي.

- **قاتل الله قبائل الشمال، لقد كان لها اليد الطولى في هزيمتنا.**

- **إذا كان لقبائل الشمال سبب فيما فرقنا، فشيوخنا لهم الأسباب كلها في الإبقاء على هذه الفرقة.**

أقبل عليهم من بعيد أحد زملائهم في المدرسة فقال عويض:

- **لا تتفوه أمام البكري بشيء.**

- **لماذا؟ أليس من قبيلتنا؟**

- **بلى، ولكنه يتهم بأنه من العيون.**

صمتا قبل وصول البكري، وسار الحديث بينهم بمديح فضائل السفينة الراسية في الميناء.

أخذت إذاعات العشائر تتبارى في اختيار اسم للسفينة، وأعلنت عشيرة أبي المكارم عن مسابقة لاختيار الاسم، وأصبح همُّ الناس صباح مساء البحث عن اسم مناسب. قال كريم:

- **لو أخذوا برأيي لاخترت لها اسم عروبة.**

رد زميله عليه:

- إن هذا الاسم ينكره إمام المسجد.
- لماذا، هل فيه شيء يستقبح؟
- لا، لكنه يحيي في النفوس التغني باسم القبيلة، وهو ما يرى الإمام أن الدين ينهى عنه..
- أو لم يكن الرسول من قبيلتنا، وهو الذي قال: أنا عربي والقرآن عربي ولسان أهل الجنة عربي. كما ورد عنه قوله : إذا ذلت العرب ذل الإسلام..
- بلى، لكن إمام المسجد يرى أن ذكر الانتماء إلى القبيلة يتنافى مع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.
- إن انتسابنا لقبيلتنا لا يتنافى مع ديننا، بل إن الآيات نزلت حافلة بما يشير إلى هذا النسب الكريم.. ثم ألم يقل الله عز وجل في كتابه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾.
- بلى، ولكن هل تتوقع أن إمام المسجد لا يعلم ذلك وهو يقرأ القرآن في كل صلاة. إنه يرى أن في رفع اسم القبيلة دائماً ما يوغر نفوس القبائل الأخرى.
- وهل رضيت عنا تلك القبائل، حتى نحفظ لها ودها.
- لن ترضى عنا ما دمنا نختلف معها في أصولنا وثقافتنا.
- ما الذي أوصلنا إلى هذا النقاش الذي يؤلم القلب.. أعتقد أنه اقتراحي اسم عروبة لاسم السفينة، أليس كذلك؟

- **بلى، وأشغلتنا بهذا الاقتراح الشائك.**

- **على كل حال أنا لا أقصد ما ذهبت إليه بل أعني بعروبة يوم الجمعة، فعروبة اسم من أسمائها، وهذا ما يلائم إمام المسجد الذي دافعت عن رأيه.**

وفيما كان الناس يبحثون في شأن الاسم الذي سيطلق على سفينة القبيلة، أعلنت إذاعات العشائر الاتفاق على تسميتها (بالغالية)، ولم يرد ضمن النشرة الإخبارية حيثيات التسمية، ولا من أطلق عليها هذا الاسم، ولهذا شغل أبناء العشائر أنفسهم طوال الأيام التالية بالبحث عن تفسير لهذا الاسم. فقال أحدهم: سميت الغالية لأن ثمنها كان غالياً، فقد دفع فيها أصحاب السلطان الأموال الطائلة، وقال آخر: لأنها تمثل قبيلتنا، وقبيلتنا غالية علينا جميعاً.

وقال قائل ثالث، كان يطالع الكتب في مكتبة المدرسة: إنها سميت بذلك نسبة إلى إحدى الفرق الدينية الضالة. لكن الناس ضحكت عليه، وقالت: إن الكتب أفسدت عليه عقله، وكادوا يحصبونه...!!

(٦)

كثرت اجتماعات شيوخ العشائر للبحث عن أفضل السبل لاستثمار الغالية، وقدمت اقتراحات عديدة، بعضها حاول الاستفادة منها في النقل التجاري، وبعضها الآخر أرادها أن تكون سياحية تنقل الركاب بين الموانى. وكان الاختلاف بين الشركاء كبيراً، إذ لم يكن هذا الأمر وارداً في عقول الشيوخ إبان المباحثات الأولى التي قامت عليها فكرة إنشاء السفنية، إلا أن الشيخ أبا سعد في الاجتماع التحضيري السري لتسيير الغالية طرح فكرة اشرأبت لها النفوس، وتناسى أصحاب السلطان اختلافاتهم. قال الشيخ أبوسعد:

- **إن البحث في أمر الأهداف بعيدة المدى للغالية أمر مبكر، وقد تثير بيننا كثيراً من الاختلافات كما رأيتم.**

رد الشيخ أبو فخري:

- **بين لنا رأيك فقد طال بنا الجدل، ولم نخرج بفائدة تذكر..**

رسم الشيخ أبو سعد ابتسامة كبيرة على فمه ثم طرح اقتراحه:

- **نسير الغالية في رحلة تجريبية..!!**

رد الشيخ أبو فخري قائلاً:

- **هذا هو اقتراحك! ماذا يحل لنا من مشكلة؟**

- صبرك علي يا صاحب السلطان ، صبركم علي..!

- اقتراحي لم يكتمل بعد...

- هات ما عندك، فنحن في عجلة من أمرنا، بعد هذه المناقشات الطويلة...

- إن الرحلة التجريبية يحتاج تسييرها إلى وجود ركاب قل عددهم أو كثر، حتى يمكن الحكم عليها..

- هو ما تقول.

- وماذا بعد؟ (قالها أبو زيد في ضجر).

- سوف يكون هؤلاء الركاب هم شيوخ القبيلة، ورجالهم....!!

- نعم الاقتراح..نعم الاقتراح..

- وسنتمكن عن طريق الغالية من جوب جميع أنحاء العالم، والمرور بموانيه الزاخرة بما لذ وطاب!!

- أحسنت وأصبت (تعالى ذلك من الجميع).

رفع الشيخ أبو الحكم يده طالباً الحديث..

رد عليه أبو المكارم مكفهراً..:

- نحن سعداء هذا اليوم، ولا نريد أن تنغص علينا متعتنا يا أبا الحكم!!

obeikandl.com

- **ما يدريك أن ما أقوله سينغص عليكم؟**

- **اعتدنا منك أقوالاً لا طائل من ورائها إلا التنغيص على حياتنا.**

- **اسمعوا قولي ولكم ما ترون.**

أجاب الحضور:

- **دعوه يقل ما لديه، والرأي ما لدينا!**

- **إن على الغالية ديوناً كبيرة، بسبب سوء التقدير في تكاليف التصنيع وما تبع ذلك من ملء لأفواه لا تمتلئ..**

قاطعه الشيخ أبو سعد:

- **ألم أقل لكم إنه لا يريد أن نهنأ بسفينتنا..!**

عاد الشيخ أبو الحكم إلى الحديث:

- **من أجل ذلك فإن تسيير الغالية في رحلة حول العالم دون دفع التكاليف، أمر فيه مخاطرة كبيرة، فتكاليف التشغيل كبيرة، والدائنون من إسحاق أورون وأضرابه ينتظرون كل سانحة للفتك بكم وبسفينتكم، فاعقلوا وتدبروا أمركم بالحكمة..!**

أحس الجميع بوخز الضمير، لكنهم أصموا نفوسهم عن سماع صوت العقل. وهمس الشيخ أبو المكارم في أذن الشيخ أبي الفوارس:

- **اعرضوا عليه أن نشتري نصيب عشيرته في الغالية إذا كان ذلك يرضيه..!**

- **حسبك، حسبك، لا تزد الأمر توتراً أكثر مما هو عليه..!**

قام الشيخ أبو الحكم مودعاً بقية الشيوخ، وقال:

- **استودعكم الله، لكن لا تنسوا العقل بينكم، ودعوكم من الهوى الذي أضاعنا.**

ثم مضى في طريقة لا يلوي على شيء.

(٧)

أعلنت إذاعات العشائر النية الكريمة لأصحاب السلطان في رحلة تجريبية للغالية كي يتعرفوا عليها عن كثب، ويستطيعوا الوصول إلى وضع الأهداف التشغيلية الواضحة لعمل الغالية.

شكل أعضاء الرحلة على الغالية، من أصحاب السلطان وحاشيتهم وأعوانهم. وفي جلسة سرية عقدوها باستثناء أبي الحكم، ولم يحضرها أحد من الأعوان، أقروا مبادئ الرحلة العامة التي تتمثل في عدم اصطحاب النساء والأطفال؛ لما قد تحمله الرحلة من مشقة عليهم، والانتقاء من الأعوان والحاشية من ثبت إخلاصه لشيخه طوال سنين مضت، حتى أمن طويته. وحيث إن

الرحلة طويلة وشاقة، وهو ما يستلزم تهيئة وسائل الراحة، فإنه لا بد من أن يأخذ كل شيخ الحرية الكاملة في جناحه المخصص له، بحيث يهيأ له ما يستلزمه من وسائل الراحة والطمأنينه. ولم يعلن من هذا الاجتماع السري إلا تحديد أسماء الأعوان الذين سوف يشاركون الشيوخ عناء الرحلة. لكن الشيوخ فوجئوا بأمر لم يكن في حسبانهم مما جعلهم يتنادون ببحث الأمر.

هاتف الشيخ أبو فخري، وهو مضطرب بعض أصحاب السلطان من مشايخ العشائر، فقال له الشيخ أبو المكارم:

- **وماذا تخشاه؟ هوجة وتنتهي.**
- **لم نعتد مثل هذا في عشيرتي.**
- **وهذا هو أصل المشكلة، لهذا فلم تعد العدة لمثل هذا الأمر.**
- **إن الأمر أكبر من أن يتنبأ له، وأن يعد له عدته.**
- **ألم يكونوا مجرد أفراد من الرعاة والجائعين؟**
- **لم يكن الأمر بمثل هذا التبسيط، لقد هجمت مجاميع كبيرة من سكان القرى المجاورة وأهل الخيام في الصحراء، وأخذوا يهتفون في الشوارع مطالبين بالسفر على الغالية.**
- **قاتل الله هؤلاء القرويين ورعاة الشاء والبعير، لقد ألهبهم مرأى الغالية....**

- لقد تشجع بعض سكان المدينة ممن يزعمون أنهم من المتعلمين وشاركوهم في مطالبهم.

- يبدو أنك يا شيخ كنت متهاوناً معهم إلى أبعد الدرجات، فأعطيتهم من الحرية أكثر مما يستحقون.

- لم أكن كذلك، لكني فوجئت بهم اليوم، ولم آخذ مثل هذا الأمر في الحسبان، ولم أعد للأمر عدته.

- كان يجدر بك أن تعرف أن هؤلاء الرعاع لا يعطون شيئاً، فما إن تقدم لهم شيئاً حتى يصابوا بالسعار، فيطلبوا مزيداً منه..

- حدث ما حدث، وأنا أسألك اليوم عن العمل؟

- بإمكاننا أن نتركك وشأنك معهم، حتى تعرف قيمة تلك الحريات التي أعطيتهم، لكننا نخشى أن تمتد ألسنة النار فتحرق الأخضر واليابس.

- دعك من هذا القول فليس هذا وقته، وأعني على الأمر برأي أو فعل..

- سوف أرسل لك فرقة الفرسان وستتولى الأمر.

- فرقة الفرسان!! إن أعداد هؤلاء كثيرة، وتتقدمهم بعض السيارات التي تقل أعداداً كبيرة منهم...

- **هل تهمك الوسيلة أم النتيجة؟**

- **بل النتيجة، ولكن أريد النتيجة الحاسمة، فإني قد أصبحت أخشى من ازدياد سطوتهم.**

- **لا عليك، واعتبر الأمر قد انتهى من الساعة.**

أصدر الشيخ أبو المكارم أوامره السرية إلى فرقة الفرسان الخاصة فتولت الأمر!

في مغرب ذلك اليوم كان كل شيء قد انتهى في عشيرة الشيخ أبي فخري. عشرات من القتلى الذين تمت إبادتهم ببنادق فرقة الفرسان، وعشرات مثلهم دهستهم سنابك الخيل. والبقية الباقية ولت هاربة إلا من أمسك به وأودع السجن..

وتلقى الشيخ أبو فخري من إخوانه أصحاب السلطان التهنئة بحكمته في إخماد نار الفتنة. واتصل بأخيه أبي المكارم يشكره على نخوته، لكن أبا المكارم لم يزد على أن قال:

- الحكم ليس سهلاً، ولا تعتد على التراخي..

واستوعب الشيخ أبو فخري مشورة أخيه، وأنهى المكالمة بالشكر الجزيل!

كان شيوخ العشائر يتوقعون أن إخماد الفتنة في مهدها قد قضى على أي رغبة من أهل القرى وسكان البوادي في ركوب

الغالية. لكن ما حصل في قبيلة الشيخ أبي فخري كان محركاً لقرى القبيلة وبواديها، فخرجت في الشوارع تهتف مطالبة بتحقيق مطالب أبناء القبيلة في السفر على الغالية، سفينة القبيلة.

ولم يكن لحكمة أبي المكارم أثر في الاجتماع الذي عقده المشايخ للبحث في حل لهذه المشكلة. وتوصلوا إلى وجوب إشراك بعض أبناء العشائر في السفر على الغالية، وعلى الرغم من أن ذلك قد ووجه ببعض الاعتراض والامتعاض من أغلب الشيوخ، إلا أن الواقع فرض عليهم ضرورة البحث عن حل جذري للمشكلة. وأخيراً توصلوا إلى أن يشارك من كل عشيرة خمسون شخصاً يتم اختيارهم عشوائياً حسب قرعة تتم بينهم. وأعلن الخبر في وسائل النشر، وصدحت الإذاعات معلنة مكرمة أصحاب السلطان على أبناء عشائرهم بهذا القرار الحكيم.

وعاش أبناء القبيلة في الأيام التالية بين الحلم والواقع، كل واحد منهم يمني نفسه بالسفر مع المشايخ على ظهر الغالية , ويتخيل ما ستكون عليه من جمال وكمال، فهي قد صنعت على عيون الشيوخ الذين لم يدخروا وسعهم وأموالهم في سبيل بنائها على أكمل طراز.

ومرت الأيام سراعاً حتى جاء يوم الاقتراع على مقاعد الغالية. اصطف أبناء العشائر يضعون أسماءهم في حاويات ضخمة برقابة

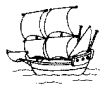

صارمة من رجال الشيوخ، وحرسهم الخاص حفاظاً على الأمن والنظام الذي يهمهم استتبابه.

اختيرت الأسماء عشوائياً من هذه الصناديق وعلقت على أبواب المدارس في كل مدينة، وعلى أبواب المساجد في القرى، وعلى الخيام في الصحراء. حتى تناقلها الركبان في الفيافي، وأمست الغالية ورحلتها أسطورة في وجدان القبيلة ترددها البراري والقفار.

(٨)

جاء اليوم الموعود للسفر فركب المشايخ، ثم تبعهم رجالهم وأعوانهم. وعندما استتب لهم المقام في أجنحتهم جرى إركاب أبناء العشائر الذين حالفهم الحظ في القرعة.

خصصت الأجنحة للشيوخ وأعوانهم، في حين أبقيت بعض الغرف المفردة فارغة، احتياطاً لما يمكن أن يستجد أثناء السفر، في حين خصص الطابق الأعلى المكشوف لركوب من حالفهم الحظ من أبناء القبيلة.

سارت الغالية الهوينى تمخر البحر، وأهالي السطح منها يهزجون مبتهجين بتحقق حلمهم في الركوب في الغالية من دون سواهم من أقرانهم. ورفع سويلم عقيرته بالغناء:

وكنا إذا الجبار صغر خده ••• ضربناه حتى تستقيم الأخادع

أما حمدان فإنه أخذ يردد قول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ.... ﴾.

في حين أخذ محمود ينظر إلى الشاطئ الذي بدأ يبتعد قليلاً قليلاً، ويحدث نفسه: ماذا تعمل عائشة الآن، هل تراها تفكر فيَّ، أم أنها انشغلت عني بشؤون الغنم وحلبها. ليتها تراني الآن وما أنا فيه من عز. لم يحالف الحظ أحداً من قريتنا غيري! عندما علمت عائشة بذلك صعدت إلى السطح مزغردة تخبر صويحباتها بالخبر. لكني عندما عدت في المساء ذلك اليوم واجتمعنا على العشاء قال لي والدي:

- **لماذا تسافر وتترك ابنة عمك قبل أن تتزوجا؟**

وقلت آنذاك باعتزاز:

- **إنها فرصة يا والدي، ولو لم يكن السفر من نصيبي لما حزنت.**

- **ولكن عائشة هائمة على وجهها منذ سمعت بالخبر ولا تكلم أحداً.**

- **ألم تسر عنها أختي، وتشرح لها الأمر؟**

- **إنهن النساء! لا يسمعن قلوبهن أي صوت للعقل.**

- **لقد قالت لي أختي إنها زغردت عند سماع الخبر و....**

- **كان ذلك عند الصدمة الأولى، فلم تكن تعي حقيقة الأمر ولا تعي ما تقول، لكنها لما عادت إلى حاله، تراجعت عن فرحتها، ورأت أن الأمر لا يفرح به.**

- **قضي الأمر يا والدي ولا بد من السفر.**

دوت صافرة السفينة مؤذنة بقربها من مجموعة من سفن الصيد الصغيرة، فعاد محمود ينظر إلى من حوله في السطح. فرأى بعضهم ما زال يضحك، ويتغنى بجمال البحر والغالية، في حين أن بعضهم الآخر قد أصابهم الدوار، فانكمشوا في أغطية لفوها حول أجسادهم.

بدأت معاناة السفر على سطح السفينة تظهر على الوجوه قبل النفوس، أصبح البرد القارس يلفح الأجسام حتى يصل إلى العظام، ولم تنفع معه تلك الأغطية التي جلبوها معهم؛ لهذا أصبحوا يبحثون في أرجاء السطح عن زوايا تقيهم لفح برد الليالي.

منذ أول يوم على ظهر الغالية جعل ركاب السطح لهم مؤذناً وإماماً يؤمهم في الصلاة، وفيما عدا الوجبات الثلاث التي تقدم لهم بصورة جماعية، وفي صحون واسعة يصطف عليها الجميع؛ فإنه لم يعد يربطهم براكبي الغالية إلا ظهرها. وهكذا انقطعت صلتهم بسكان الأجنحة.

كان سؤال يطرحه بعض ركاب السطح في الخفاء، ويتداولونه فيما بينهم:

- **لماذا لا نصلي جماعة، مع شيوخ القبيلة ورجالهم؟**

وكان الرد يأتي سريعاً:

- **ليس هناك مكان واسع يمكنه أن يستوعب كل هذه الأعداد من الرجال.**

- **وأين يصلى شيوخنا؟**

- **بلا شك، إن لديهم مصلياتهم الخاصة.**

وينتهي التساؤل، وتنقطع الإجابة المقتضبة. كان ركاب السطح يسرون عن أنفسهم بالأهازيج تارة، وبالسمر وذكر الأساطير التي تتداولها العجائز في قرى القبيلة وفيافيها تارة أخرى. يتبادلون الأحاديث بذكريات أهلهم في مراعي القبيلة وقراها ومدنها، في حين كانت مجموعة من المعلمين تعرض لسيرة القبيلة في ماضيها التليد، وتحن لتلك الأيام الخوالي من عز كان قد أصابها.

قال أحدهم يوماً:

- **يا ترى ما الذي أصاب الدنيا حتى منيت قبيلتنا بهذا الخذلان؟**

فأجابه معلم الاجتماع:

- ما أصاب قبيلتنا لم يكن أمراً غريباً في مسيرة التاريخ..

أكد الآخر:

- إن التاريخ لا يرحم، فهو ما بين حين وآخر يغربل الدنيا، فيقدم قبائل ويؤخر أخرى.

- لكن هذه الغربلة لا تتم عشوائياً بل إن هناك نظاماً يسري على جميع قبائل الكون.

- ألم تتعلم القبائل عبر العصور هذا النظام الذي يمكنه أن يفضي إلى إقصائها أو تقديمها.

- بلى، وما هذه النهضة التي تسري في قبائل الشمال ، إلا نتاج لتلك التجربة التاريخية الطويلة.

- ألم تتعلم قبيلتنا ما تعلمته قبائل الشمال ؟

- لقد كان لقبيلتنا إرث فكري عظيم يفوق جميع التجارب التاريخية.

قاطعه آخر:

- أتعني ما قامت به قبيلتنا من تمصير للأمصار في غابر زمانها؟

- أعني مجد قبيلتنا حينما تلقت الوحي من السماء، واستظلت بظله، وحملت لواءه.

- **إذن أنت تعني فتوحات القبيلة ونشرها المبادئ السماوية.**

- **وأعني أكثر من ذلك، أعني تلك التجربة الفريدة من الحضارة الفكرية التي قامت حول المبادئ السماوية، تلك المبادئ التي لو عنيت بها قبيلتنا لما شاخت أبداً، ولبقيت في صدر التاريخ دوماً.**

رد أحد الحاضرين من سكان السطح؟

- **ولكن قبيلتنا - ولله الحمد - ما زالت باقية على العهد، فهي تصلي وتصوم وتقيم أركان الدين...**

- **وهل هذا كل ما جاء به وحي السماء؟**

- **أنتم يا أهل المدارس أدرى مني، لكني لا أعرف إلا هذا...**

ونودي إلى أن العشاء قد وصل.. وقبل أن ينفض المجلس قال المعلم مخاطباً ذلك المتسائل:

- **يا هذا، هل ترى ما نحن فيه من الدين؟**

ثم قبل أن يجيب قال له:

- **لا أريد منك إجابة، أريد منك أن تفكر في السؤال، ويكفي هذا منك الآن...!!**

كانت الغالية في أول رحلتها لا تتوقف عند الموانى إلا لماماً، وعندما تحتاج إلى التزود بالوقود أو الماء والطعام، ولم يكن يلحظ

ركاب السطح هذه الوقفات، إذ كانت لا تغير من حالهم شيئا، ولم يلحظوا شيئاً يثير انتباههم، اللهم إلا بعض مظاهر المدنية التي لم يروا مثلها في مضارب قبيلتهم ومدنها. ولكنها كانت مشاهد أشبه بالصور التي لا تثير في أنفسهم أي علامة من علامات الاستغراب أو الاستقصاء في البحث. وهكذا مضت الغالية في رحلتها تمخر عباب البحر، ومضى ركاب السطح يجترون معاناة ظهرها..

وبعد صلاة العشاء حدثهم إمام الصلاة عن سلامة المعتقد، وأنه أصل الدين الذي يقوم عليه، فإذا صلح فكل ما عداه تابع له... وبعد أن أنهى حديثه تواردت عليه أسئلة المصلين حتى شملت مشكلات القبيلة وهمومها.

تساءل زكريا قائلاً:

- **وهل تقتصر تعاليم الدين على سلامة العقيدة فحسب؟**

رد بعض الحضور:

- **وهل سلامة العقيدة أمر هين؟**

- **كلا، فلم أقل ذلك، ولكن كان سؤالي حول اقتصار الدين على العقيدة، مما يعني أن الدين لا يعنيه شيء البتة غير صحة ما يبطنه الإنسان في نفسه من معتقد، أما غير ذلك فلا يعنيه.**

رد من يؤم أهل السطح في الصلاة:

- **بل إن ديننا عني أيضاً بالعبادات، فلا دين لمن يكتفي بالشهادتين فحسب..**

- **وماذا أيضاً غير العبادات؟**

أجاب أحد المعلمين:

- **إن ديننا دين سماوي إنساني شامل ينظم أمور الدنيا والدين.**

- **إذن الدين ليس مقصوراً على المسائل الدينية والروحية، بل هو دين عني بقضايا الإنسان على طول التاريخ، ينظمها على أسس أخلاقية سامية تحفظ له إنسانيته وتنقذه مما يعترضه من متاهات الحياة.**

- **وماذا تعني هذه العناية الدينية بقضايا الإنسان؟**

- **تعني أن الدين ينشد إقامة الحكم في كل القبيلة على شرعته..!!**

قاطع المتحدثَ أحدُ الأشخاص في طرف المجلس:

- **نحمد الله على إقامة الشرع في قبيلتنا، وهذا ما جعلها تحتفظ بكيانها رغم تعاقب الأزمان والعصور.**

عاد المتحدث إلى طرح الاستفسار:

obeikandl.com

- وهل الشرع محصور في إقامة الحدود وجباية الزكاة..؟

- لم يقل أحد بذلك، لكن هذه مظاهر رئيسة في الشرع، وهي مقامة - والحمدلله - بيننا.

- إن شرع الله كل لا يتجزأ، فمثلما تقام الحدود يلزم إقامة العدل بين الناس، وسد أفواه الجائعين وكسوة العارين.. وإذا جبيت الزكاة، فلا بد أن تصرف في مصارفها التي أقرها الدين، وإذا.....

أشار أحد الجالسين بيده، وقال:

- يبدو أن الحديث قد جركم إلى أمور ما يحسن لكم التعرض لها.

رد أحد الحاضرين:

- وماذا قلنا من أمر لا يحسن أن نخوض فيه؟ ما قلناه كان لا يتعدى ما قال الله، وقال رسوله.

- ومع ذلك، فدعوا الخلق للخالق، وللجدران آذان!!

هز آخر رأسه وقال:

- لقد تأخرنا، وحان موعد النوم؛ كيما نستيقظ لصلاة الفجر...

(٩)

أخذ علي ينظر إلى أبراج الغالية، وهي تنفث دخاناً أسود في السماء وتعب البحر، ثم فغر فاه عن ابتسامة صفراء. سأله زميله حمدان:

- **ما لك تبتسم هذه الابتسامة التي تكشف عن شيء آخر غير الابتسام؟**

- **ابتسم؟! بل أضحك على حالنا!**

- **على أي الامور تقلبنا ترى أن أحوالنا تضحك! فأيها أوحت لك بها هذه الأبراج؟**

أمسك كرسياً كان بجانبه وجلس، وقد وضع يده تحت ذقنه:

- **حال لم الشمل الذي كان حلماً عظيماً لأبناء القبيلة، فتقزم حتى أصبح سفينة تطوح بها الرياح في عرض البحر...!!**

أقبلت مجموعة من المعلمين وتبعهم آخرون، حيث اعتادوا تسرية أنفسهم في الجلسات الجماعية التي يطرح فيها النقاش حول أحوال عشائرهم، أو هموم القبيلة بصفة عامة.

تحلقوا جلوساً حول المكان، سكت من كان يتحدث، بعدما كان مندفعاً فيه. لحظ أحد المجتمعين ذلك فقال ضاحكاً:

- ما بالكم؟ هل نحن من العذال؟ لماذا قطعتما حديثكما؟

- قال آخر:

- لا أعتقد أن هذا المكان مخصص للإفضاء بالأسرار، إلا.. إلا إذا كانت الأحوال قد تغيرت!!

- لم يتغير شيء، وهذا مكان اجتماعنا كالمعتاد، إلا أننا كنا نتحدث في موضوع قد لا يروق لكم... ومن المؤكد أنه لا يفرحكم..!

- لقد فقدت قبيلتنا الأفراح منذ زمن بعيد، ولم يبق إلا ذكريات يتغنى بها منشدو الربابة، ويتغنى بها الشعراء في قصائدهم، وإن لم يدركها أحد من الأحياء.

- لا تحرك أحزاننا، فيكفينا ما نحن فيه.

- علم الله إني لا أريد أن أحزنكم بقولي، ولكن أردت أن أقول بإيجاز: نحن مستعدون لسماع أي شيء، وكل شيء...!!

- ابتسم حمدان، وقال:

- ما دام الأمر كذلك، فتحمل ما يأتيك من حزن وصداع....!

- وإني على ذلك لصابر فهات ما عندك.

كان علي ينظر بعيداً إلى ما وراء الأفق، ثم عاد الصمت إلى المجلس وانتبه لنفسه فقال:

- **أليس من حديث تديرونه بينكم.**

أجاب الجميع بلسان واحد:

- **ننتظر منكم إكمال ما بدأتموه قبل حضورنا.**

- **لقد اكتمل الحديث بيننا، ولكنه في واقعه حديث شجي لا ينتهي أبداً...**

ثم أردف قائلاً:

- **من منكم يحلم بلمٍّ شمل أبناء القبيلة؟**

علا الصمت المجلس، ثم تكلم أحد الجالسين بعيداً:

- **ومن لا يحلم بذلك؟**

ثم قال آخر:

- **أليست الغالية صورة من صور لمٍّ الشمل.**

وقال حمدان:

- **هل ترون أن مثل هذه السفينة كفيل بتحقيق حلم القبيلة ولمٍّ شملها؟**

فرد عليه الأول:

- **على الأقل في المرحلة الراهنة.**

- **وما الذي يجبرنا على هذه المرحلة؟**

obeikandl.com

- ألا ترى أن الأيام تغير النفوس؟

- ما الذي تعنيه بقولك؟

- أعني أنه ليس كل أبناء القبيلة يحملون الحرص نفسه على لمِّ الشمل!

- إن هذا مما أعجب له، لقد كنت أرى أن لمَّ الشمل حلم الجميع.

قطع الحديث مصلح قائلاً:

- ألا ترى يا أستاذ علي أنك قد أعطيت لمَّ الشمل أكبر من حجمه؟

- ألا ترون أنه هدف نبيل يستحق هذه الأهمية؟

- إن نبل الهدف مشكوك فيه، بل قد يكون العكس من ذلك.

- زدني إيضاحاً، فقد قلت كلاماً لم أعهده.

- لمُّ الشمل مطلب قبلي، وهذا يتعارض مع الدين!

- لأول مرة أرى من يقول إن لمَّ شمل القبيلة ووحدتها يتعارض مع الدين. إني أعرف أن الدين يقول: واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا..

- إن عدم التفرق الذي تنادي به الآية يقوم على أساس الاتحاد في الدين، ولا ينظر إلى شيء آخر غير ذلك.

obeikandl.com

- لماذا تغضون من شأن قبيلتكم بعد أن كرمها الله!! ألم ينزل كتابه العظيم بلسانها، وبعث رسوله منها، وجعل بيته في أرضها...! ألم يحمل رسالة الدين إلى الناس كافة رجال من قبيلتنا؟

- إن ما ذكرته لا يختلف عليه أحد، لكن هذا الفضل الذي حباه الله للقبيلة لا يجعلنا نقيم علاقتنا على أساس قبلي.

- هل ترى أن قبيلتنا حقيقة أم وهم؟!

- بل حقيقة ، وهل يشك أحد في ذلك؟

- وماذا تسمي انتماءك لهذه القبيلة؟

- لا أرى له اسماً، لكنها قبيلتي، وأبناؤها أهلي وإخواني..

- وهذا ما نريده، وهل ترى أن اجتماعكم وتعاضدكم في الملمات مما يخالف الدين؟

- إن ما يطرحه بعض أبناء القبيلة غير ما تقول.

- وما يقولون، وقد عرفت قولي؟

قطع الحديث أحد الجالسين بالقول:

- إن هناك من أبناء القبيلة من خرج من أرضها، وتأثر ببعض الأقوال الفاسدة..

عاد مصلح إلى الحديث قائلاً:

obeikandl.com

- لقد تجرأ بعضهم إلى القول بأن القبيلة لا علاقة لها بالدين ، وإن الدين أمر يخص الفرد فحسب.
- هذه أقوال نقلها بعض من درس لدى قبائل الشمال، وهي أقوال لا يقبلها أحد؛ لأنها تتعارض مع فكرنا الديني الذي يجمع بين الدين والدنيا.
- إن قولك هذا لا يغير من الحقيقة شيئاً، وأقوالك هذه لا تتعدى جنبات هذه السفينة.
- ليس ما أقوله رأياً خاصاً بي، بل هو رأي غالبية الذين يدعون إلى لم شمل القبيلة، بل إنهم لا يرون أي قيمة لقبيلتنا دون ارتباطها بهذا الدين.
- ومع ذلك تبقى الحقيقة التي لا يمكن التزحزح عنها، وهي أن نسب الدين وعصبية الجاهلية لا يجتمعان أبداً.
- ولماذا تصر على افتعال الصراع بين الانتماء إلى القبيلة والانتماء إلى الدين؟ إن ما بين هذين الانتماءين ليس صراعاً، بل تفاعل حتمي بناء، فإن الانتماء إلى القبيلة ضروري، ومقدمة طبيعية للانتماء إلى دائرة أكبر وهي دائرة المعتنقين لهذا الدين.

ومضى الحديث لا ينتهي في الحلم الذي لا يمل أبناء القبيلة من ترديده، حين يجتمع شملهم، ويتحدون أمام أعداء القبيلة وقيمها.

(١٠)

مرت الغالية على ميناء (لندرة) وهو من موانى القبائل الشمالية البعيدة عن قبيلتنا. كان ميناء لم ير مثله بتجهيزاته ورافعات التحميل الضخمة التي تركن إلى أرصفته. وبالنظام الدقيق في تحميل السفن وإفراغها. تعجب جميع راكبي السطح من اتساع الميناء، وامتداد المدنية إلى آفاق بعيدة، من مسطحات العمران والأبنية الشاهقة، مع تنظيم دقيق في خطوط سيرها. قال أحدهم وهو ينظر إلى ذلك:

- **متى نرى مدننا مثل هذه؟!**

وقال صاحبه:

- **تلك مدنية ولدت عندما غفونا.**

- **ألا يمكننا أن نلحق بها؟**

- **وهل نحن جادون في اللحاق؟**

- **لعلنا كذلك..**

- **قد نبني مثلهم، ونشترى ما ينتجون، لكننا نفتقد ما لا يشترى..**

- **أليس البناء والشراء من أوليات التحضر..؟**

obeikandl.com

- **قد يكون ولكنه ليس التحضر نفسه، إننا بحاجة إلى العودة إلى منابع حضارتنا ومفاهيمها في العدل، والحرية، والشورى، وهذه لا تستورد ولا تشترى!!**

وغمغم الاثنان من الأسى، ومضيا ينظران إلى ميناء (لندرة)..

مكثت الغالية أكثر من أسبوع في الميناء، ولم يكن هذا معتاداً، إذ جرت العادة باقتصار الوقوف في المواني على التزود بالوقود والطعام، وهو ما لا يستغرق أكثر من يومين في العادة... ولما طال زمن الوقوف بدأ الحديث يكثر على السطح:

- **ماذا تراهم فاعلين في هذه المدينة؟**
- **إني أرى على البعد مجموعة من المشايخ تركب سيارات غريبة وتمضي بهم.**
- **نأمل ألا يكون قد أصيب أحد المشايخ بعلة جعلتهم يتوقفون كل هذا الوقت..**
- **وهذا الشيخ أبو سعد يصافح رجلاً.**
- **وذاك الشيخ أبو المكارم يعانق آخر.**

وبقي أهل السطح حائرين في تفسير ما يحدث. وبعد أن غربت شمس ذلك المساء، رأى أهل السطح أن شيوخ القبيلة يعودون أدراجهم إلى الغالية. قال أحد الركاب:

- **أبشروا فمشايخنا عادوا إلى الغالية.**

رد عليه بعض من حوله:

- **بشرك الله بالخير، لعل الأمور عادت إلى حالها.**

بدأت الأعين تتجه إلى مدخل الغالية الرئيس، وأخذت تحملق في مسيرة الشيوخ إلى الغالية:

- **هل ترى ما أرى؟**

لم يجب عليه صاحبه، فأردف:

- **ما هؤلاء الرجال الغرباء الذين يصعدون الغالية برفقة شيوخنا؟**

رد عليه صاحبه بتساؤل آخر:

- **هل تراهم من مهندسي الغالية؟**

- **قل غيرها، فالغالية في مقتبل عمرها، وليست في حاجة إلى إسعاف هندسي.**

- **إذن ما سر وجود هؤلاء الغرباء؟**

- **لا علم لي إلا ما تعلم.**

جاء شخص آخر من ركاب السطح، وهمس في أذن صاحبه فتبعه، وجاء آخر فهمس... وتتابع الهمس...

obeikandl.com

ذهب أكثر من كان على السطح إلى الجهة المقابلة من الغالية. وشخصت الأبصار، ولم ينبس أحد ببنت شفة، حتى كاد بعضهم يمسك نفسه من مفاجأة ما يرى.

بعد أن أغلقت الأبواب الخلفية للغالية، واستقر الركاب الجدد، عاد سكان السطح مذهولين بما يرون. بدأ الهمس المسموع يدور بين سكان السطح، وكل منهم غير مصدق ما يرى، لهذا أراد التأكد من صاحبه:

- **ما الذي رأيتموه؟**

- **مثل ما رأيت.**

- **أنا لم أر شيئا، كان الظلام يلف المكان، فلم أستطع الرؤية..!!**

- **وأنا كذلك.**

وبدأت الألسن تفصح عما رأته الأعين..

- **هل ما رأيناه نساء؟**

- **لا أعتقد ذلك، بل رجال من تلك القبيلة، وهم - والعياذ بالله - يلبسون ملابس لا تستر العورة..!!**

- **وهل يتشبهون بالنساء في اللباس والحلي والأقراط.**

- **لعل رجال هذه القبيلة يلبسون ما تلبسه نساؤهم!**

رد آخر وبصورة حازمة تنبئ عن تأكد مما رأى:

- لكن ما رأيتموه نسوة من نساء تلك القبيلة.

- ولماذا تأتي هذه النسوة، على الرغم من حظر شيوخنا سفر نسائهم معهم.

- لعل أولئك الرجال قد اشترطوا وجود نسائهم معهم.

- وما حاجة شيوخنا إلى الرجال حتى تأتي نساؤهم معنا.

- بل إن النساء أكثر من رجالهم.

- لعلهم ممن يكثرون من التعدد.

- يبدو أن الأمر أكبر، ونحن لا نعلم ببواطن الأمور، فاتركوا الأمر لشيوخنا فهم أدرى..

تفرق الركاب، ولم تنعقد جلسات السمر المعتادة بنقاشها الطويل عن مصير القبيلة وعشائرها، أو التسلي بالحديث عن الجنيات اللاتي رأوها في الخرائب، وما يحلو لبعضهم من ذكره من أساطير الصحراء. ومع ذلك فإن ركاب السطح لم ينامـوا تلك الليلة، بل تفرقوا فرادى، وأخذ كل منهم يناجي نفسه أو يحادث صاحباً له.

أمسك محمود بجانب السفينة، وحلق خياله في الأفق البعيد: هل أنت ياعائشة مثل هذه النسوة؟ ليتك معي لتريهن، ويكون الحكم لك... هل يمكن أن تلبسي مثل ملابسهن؟ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أعني، هل تلبسين مثل ملابسهن أمامي؟ أقصد في بيتنا.

ليتك تفعلين ذلك..ليتك معي يا عائشة لتري ما رأيت. لا أظنهن من نساء البشر، لقد سمعت أن الجنيات يظهرن للبشر، لعلهن من الجن، فهن لم يظهرن لنا في وضح النور، بل رأيناهن في غبش الظلام. ومع أن الظلمة تحجب الأبصار عن دقائق الأشياء، إلا أني رأيت بياض أجسادهن، يكاد يخطف العقول قبل الأبصار. قد تقولين، وكيف رأيت أجسادهن وهن نساء.. إنهن لسن مثلكن ياعائشة! أنا لم أر منك يا عائشة إلا طرف كفك عندما تأتين بالشاي لنا في المجلس، أما هن فقد رأيت ما يراه الزوج من زوجته في قبيلتنا. ولكن لا يذهب بك الظن أكثر مما يجب....! فالأمر نظر من بعيد..

وأخذ جلوي بيد مشعان وسارا معاً باتجاه أحد الأطراف فقال له:

- **هل رأيت مثل هؤلاء النساء؟**

- **قد رأيت!!**

- **أحسبك تعني تلك الغجريات اللاتي يفدن إلى أطراف مرابعنا في الشتاء.**

- **هو ما أعنيه.**

- **يبدو أن ذوق الخيام ما زال راسخاً في عقلك، فلا تفرق بين صنوف النساء.**

- بل هذا ما جعلني أقول ما قلته.

- هل تعني أن تلك الفتيات المتلفعات في ثيابهن الملونة هن مثلما رأينا هذه الليلة.

- بل وأكثر مما رأيت.

- تصدر أحكامك بثقة متناهية؟

- لأني واثق مما أقول.

- وما مصدر ثقتك؟

- وهل كل ما يعرف يقال؟

- يبدو أنك صاحب تجارب، وأنا ساذج في معرفتي بك؟

- لكل منا ما يحتفظ به لنفسه.

- وحتى عن صاحبه؟

- عن كل أحد!

- يبدو أنك لا تريد أن تفضي لي بشيء من أسرارك؟

- ألم تقل إنها أسرار؟ والسر لا يصبح سراً إذا تناقله الناس.

- هل يتناقل الناس ما نقوله بيننا؟

- إذا تعدى السر صاحبه تناقله الناس.

- يبدو أنك تشك في كل أحد؟

obeikandl.com

- **ليس هذا شكاً، ولكنه من باب معرفة الحقائق، وحتى أريك، هل تعرف ما يدور في الطوابق السفلى من الغالية.**

- **لا، ولكن ما علاقة الأمر بما نحن فيه.**

- **هو مفتاح الأمر، فلأنه لا أحد منا يعرف شيئاً عنهم، لم ينتشر عنهم شيء، وبقي أمرهم سراً.**

- **إنك تقول ألغازاً، هل هناك من أسرار هناك؟**

- **كل أمر لا تعرف شيئاً عنه فهو سر عليك على الأقل.**

- **يبدو أن بعدك عن خيامك وإبلك قد جعلك فيلسوفاً؟!**

- **لعله كذلك!!**

(١١)

حرك مجيء الضيوف القادمين من الأبواب الخلفية شجون ركاب السطح، فتنوعت الأحاديث حوله بين الجد والهزل، وبين مستفسر يريد فهم اللغز المحير، وساذج يفسر الأمر حسب طبيعته.

قال جلوي:

- **إن مجيء هؤلاء الضيوف قد حرك نفسي للعودة للأهل.**

فقال آخر متهكماً:

- **وهل هناك تشابه بينهم، وبين الأهل؟**

- هل تسخر من أهلنا؟

- معاذ الله، فأهلك أهلي، ولكني أحاول فهم العلاقة بين مجيء الضيوف والعودة إلى الأهل.

علق مشعان ضاحكاً:

- لا يحيرك أمر جلوي، فالرجل مشتاق إلى العودة إلى القبيلة ليكمل نصف دينه.

قال آخر ساخراً:

- ظن اللحم من قدر واحدة!!

أجابه جلوي:

- اطمئن، لا أشترط نوعاً محدداً، هل تزوجني؟!

- صمت الآخر برهة، فعاد جلوي إلى طرح السؤال مرة آخرى:

- هل تزوجني، ليشهد هذا الجمع موافقتك؟

- لا أعتقد أنك جاد؟

- ولماذا؟ أو أنك أحجمت عندما وجدت أني جاد في طلبي؟

- ليس الأمر كذلك، ولكن لستم ممن يتزوجون منا، ونحن كذلك!!

ووقع كلامه كالصاعقة على رؤوس الجالسين فقد ذكرهم

بالعلاقات الأسرية المحسوبة بينهم وبين مواليهم. استدرك حمدان قائلاً:

- **دعوها فإنها نتنة!!**

والتقط الأستاذ علي طرف الحديث:

- **هذه هي العصبية التي نهينا عنها فنحن أبناء قبيلة واحدة، وأرضنا واحدة، وآمالنا واحدة، ولساننا واحد، ألم يقل الرسول: ألا إن العربية اللسان.. ألا إن العربية اللسان.**

- **هو كذلك.**

- **فلماذا نبحث عما يفتت قبيلتنا من داخلها، في حين أننا إذا نادينا بلمِّ الشمل قيل هذا مطلب يتعارض مع الدين...!!**

علق أحد الجالسين:

- **بدأنا بما يسر، وانتهينا بما يشجي، فلننم، قبل أن يأتي ما يحزن..!**

عندما أوى الركاب إلى النوم، قال مشعان لجلوي:

- **لقد أثرت اليوم حديثاً نكراً!**

- **لقد استثارني بحديثه.**

- **ما كان يجب عليك أن تلح عليه في الطلب.**

- **وما كان عليه أن يمانع.**

- وهل أنت جاد في ما تقول؟

- لو وافق في حينها لقبلت..

- إنه أسلوب في المرواغة!!

- بل هو ما أعتقده.

- لكن هل تفعله؟

- ربما، لو كان الحال غير الحال.

- ما ذا تعني؟

- إني لا أحسب لهذا الأمر حساباً، ويمكنني أن أفعله، ولو غضب أهلي من ذلك.

- لو قبلنا بشجاعتك المفرطة هذه، فما المشكلة إذن؟

- ألا تعرف ما حل بابن عمنا بيومي الجزار؟

- أسمع شيئاً عنه، لكن لا أعرف أكثر من كونه أصبح جزاراً.

- سافر بعيداً إلى إحدى عشائر قبيلتنا طلباً للرزق، فلقد كان من معدمينا..

- أغلبنا كذلك..

- حاول قبل سفره أن يتزوج، لكن الأبواب أوصدت أمامه، فما ترك خيمة ولا بيتاً إلا وطرق بابه متوسلاً... لكن فقره منع

الناس من أن يلقوا ببناتهم إلى التهلكة معه، فسافر وحيداً حزيناً..

- ثم اشتغل جزاراً.

- لم يفعلها أول الأمر، لكنه عمل في عدة حرف، عرف خلالها بعض موالي القبيلة فأعجبه خلقهم وخلقهم، فتزوج منهم، وأنجب من زوجته البنين والبنات، وفتح الله له أبواب الرزق، حتى أصبح بعد ذلك من أغنياء تلك الناحية.

- ثم ماذا بعد؟

- جاء إلى عشيرتنا ماداً يديه للجميع وعارضاً بناته وأبناءه للزواج، لكن العشيرة تمسكت بتقاليدها، ورفضت طلبه..

- لقد كانت عشيرتنا قاسية عليه، فقيراً وغنياً..

- كانوا يرون إن مزاوجته ستؤدي إلى دخول الموالي بيننا..

- وما المانع من ذلك، فهم بيننا؟

- سوف يصبح الموالي أخوال لأبنائنا، ويكون بيننا وبينهم قرابة غير نسب الولاء، وهو ما سوف تعير به العشيرة...

- وماذا كان رد بيومي الجزار على هذه المقابلة..؟!

- رحل كسير النفس مثلما رحل في أول أمره..

- وما ذا جرى له ولأبنائه وبناته بعد هذه الصدمة القاسية من العشيرة؟

- رأى ألا مفر من أن يكمل مشواره الذي بدأه وينسى العشيرة.

- كيف ينساها وهي عشيرته، وإليها ينتسب؟

- زوج بناته لبعض الموالي هناك، وأصبح منهم، ولم نعد نعرف عنه شيئاً.

- لشد ما تكون قاسية بعض التقاليد!

- لا تهمني قسوة التقاليد في حينها، ولكن ما يخشاه الإنسان أن ينبذ أبناؤه من بعده خارج العشيرة، أو يعيروا بجريرة أبيهم إلى الأبد..!

- أما آن لهذه التقاليد البالية أن تنتهي..

- يقولون إن التعليم كفيل بتغييرها..

- وكيف يغيرها؟

- لا أدري، لكن بعض عشائرنا التي دخلها التعليم في وقت مبكر تناست هذه التقاليد، حتى لم يعد يعرفها أحد من أبنائها.

(١٢)

بعد مضي أسبوع من مغادرة الغالية ميناء (لندرة) أحس ركاب السطح بسماع حركة وأصوات، وهرج في البهو الذي يطل عليه السطح الأعلى للغالية. لم يكن هذا معهوداً طوال أيام الرحلة الماضية مما أثار تساؤل الركاب عن هذه التغير المفاجئ. لم يكن السطح مفتوحاً على طابقي السفينة، بل كانت السواتر العالية تمنع أي محاولة لاستراق البصر؛ لهذا لم يكن بإمكانهم معرفة شيء عما يدور في جوانب السفينة الأخرى. كانت بين الفينة والأخرى تسمع أصوات موسيقية صاخبة، لكنها ما تفتأ إلا أن تتوقف سريعاً.

اكفهرت بعض الوجوه؛ لسماع هذه الأصوات، في حين تشوق بعضهم الآخر للسماع. عند إقامة صلاة العشاء، وقبل أن يكبر الإمام، صدحت الموسيقا تشق عنان السماء. لم يعد يسمع صوت الإمام في القراءة، ولفت العمائم على الرؤوس، ولكن الأصوات الموسيقية العالية كانت أقوى من أي محاولة لكبح الآذان عن سماعها.

سلم الإمام، حوقل الجميع، تساءلوا ما الخطب؟ تكاد الغالية أن تنفجر جوانبها من شدة الأصوات الصاخبة، لكنهم لا يستطيعون عمل شيء. وحتى الذين تشوقوا للسماع صدموا بالأمر، فلم يهن عليهم عدم إتمام الصلاة بسبب الصخب المزمجر.

أخذوا في التسلل بعيدا عن البهو المفتوح إلى الأعلى، واجتمعوا في أحد الجوانب القصية، وعلا التساؤل بينهم:

- **هذه أصوات ما عهدناها في قبيلتنا.**

- **أخشى على آذاني أن تنفجر.**

- **أصوات مزعجة تكاد تفجر رؤوسنا.**

- **أين أصحاب الغبطة من هذا؟**

- **ماذا ترانا فاعلين؟**

قال آخر بسخط:

- **وهل ترى لنا من حول أو قوة حتى نفعل شيئاً؟**

- **لقد كنا حينما نريد أن نسري عن أنفسنا في مضارب العشيرة، نفزع إلى الخلاء ليعزف أحدنا الربابة، وإذا علم عنا ذلك نكل بنا..!! فما الذي تغير على ظهر الغالية؟**

أجاب من يظهر عليه الصلاح، بحزم:

- **أنت تعرف أن المعازف حرام ولا يجيزها الدين.**

رد المتسائل بغضب:

- **هل الربابة من المعازف، وهذه الآلات التي تصل أصواتها إلى عنان السماء ليست منها؟**

obeikandl.com

- لعل لهم عذراً وأنتم لا تدرون!

- أي عذر في ذلك؟

- إن إطلاق الأحكام على الأشياء فرع من تصورها.

- ألا تتصور أن هذه آلات موسيقية، وأن الذي يصاحبها غناء..وغناء امرأة؟

تطوع آخر بالإجابة:

- لعل هذه المعازف لم تأت بناء على رغبة أصحاب السلطان...!

رد آخر بتهكم:

- على رغبة من إذن؟

- لعل أولئك الذين ركبوا من مدينة (لندرة) هم السبب في هذه البلية..

أيده آخر بقوله:

- صدقت، إن ما قلته هو عين الحقيقة، فأولئك القوم هم أصحاب هذه المعازف.

ثم قال آخر:

- إن شيوخنا من أصحاب السلطان فيهم تدين وزهد يمنعهم من السماح بهذه المحرمات..

obeikandl.com

رد آخر:

- **إذا لم يسمحوا بذلك، فمن يسمح إذن؟**

أكد آخر قول صاحبه:

- **هم أصحاب الأمر والنهي في الغالية، وهو المسؤولون عما يحدث.**

قال آخر ساخراً:

- **هذا إذا كان لهم أمر أو نهي..!!**

رد أحدهم وكان صامتاً يراقب الوضع:

- **انتبه للسانك يا هذا؟**

وقال آخر:

- **ماذا تقصد بقولك؟**

أخذ زكريا زمام الحديث، وقال رافعاً صوته ليسمع أكبر عدد ممكن من ركاب السطح:

- **كنت أسمع حديثكم، وكنت آمل أن أسمع منكم قولاً تكون نتيجته عملاً، لكن للأسف لم أسمع إلا ما يثير الشجار بينكم..**

قاطعه آخر:

obeikandl.com

- **ما الأفعال التي تريد؟ دعك من الأقوال المهلكة!!**

رد عليه زكريا بغضب:

- **اصمت، أفضل لك، فانا أعرفك، وأعرف أمثالك، وأعرف مهمتكم القذرة على هذه السفينة!**

صمت أكثر المتحدثين، لكن قلة منهم وجهت حديثها إلى زكريا:

- **وما ذا ترى، وهل من سبيل إلى عمل؟!**

- **بادئ ذي بدء، يجب أن نحدد هدفنا، ولهذا فإني أسألكم: ما الذي أغضبكم؟**

رد أحدهم قائلاً:

- **وهل هذا أمر يحتاج إلى سؤال؟**

- **نعم، هذا هو ما يحتاج إلى السؤال، لأن الإجابة عليه هي التي تحدد أهدافنا؟**

قال أحدهم:

- **انزعاجنا من هذه الأصوات الصاخبة، إننا نكاد نصم...**

قال الأخر:

- **وهي منكر نهينا عنه...**

ثم عقب زكريا قائلاً:

- **وفيما يحصل في الغالية غبن لنا كله، فكيف ينعم الآخرون حتى لا يبقى عليهم إلا المعازف تعزف لهم، في حين لا تظلنا على السطح إلا السماء، ولا نتدثر إلا بالأسمال، ولا نأكل إلا الفتات.**

قال أحدهم من بعيد:

- **لا فض فوك يا زكريا، لقد بانت الأشياء، فما العمل الآن إذن؟**

- **إن الغالية ملكنا جميعاً، وأصحاب السلطان هم ولاة الأمر هنا. ويصلح حالهم ما يصلح حالنا، وبالتالي يهمهم أمرنا؛ لهذا فإني أقترح أن نكون رهطاً من بيننا يقوم بإيصال رسالتنا إلى المشايخ.**

قاطعه أحد الجالسين:

- **وأي رسالة تعني؟**

- **رسالة تتضمن ما توصلنا إليه، أسباب ضجرنا من الوضع الذي نعيشه..**

اجتمع ركاب السطح وحددوا مطالبهم في ثلاثة أمور، هي حصر مفاسد الضيوف؛ وبالذات موسيقاهم الصاخبة في أماكن نزولهم من السفينة، وعدم المجاهرة بها، وتهيئة أماكن ملائمة

obeikandl.com

للمبيت لركاب السطح تقيهم برودة الليل. وكذلك تقديم ما يكفي من الطعام؛ لأن ما يقدم لهم قليل ورديء. وأجمعوا أمرهم على أن يذهب زكريا وأربعة معه لتقديم العريضة وشرح مطالبهم لأصحاب السلطان.

تقدموا إلى السلم المفضي إلى الأجنحة السفلية، لكن مجموعة من رجال الشيوخ كانت تقف على السلم منعتهم من التقدم. ألح زكريا على هؤلاء الرجال، ومع شدة الإلحاح وافقوا على إيصال مطالبهم المكتوبة.

بقي ركاب السطح في الانتظار أياماً متوالية، ولكن لم يتغير شيء من الوضع، ولم ير أثر للمطالب. مع شدة المعاناة أخذ الهمس يعلو ويعلو من السطح، وأصبح الصوت مسموعاً لسكان الأجنحة، وارتفعت الهتافات: "الطعام والمركب الكريم مطلبنا...". أحس ركاب السطح بجلبة قريبة من السلم، استبشروا خيراً، وفي لحظة خاطفة، انطلقت مجموعة من الرجال من السلم متجهين للمجتمعين، وأعملوا هراواتهم على الأجسام الهزيلة العارية، فتفرقوا مسرعين، يبحث كل واحد منهم عن زاوية تخفيه عن رجال الهراوات..

وانقشعت الهجمة الشرسة عن غياب زكريا وأربعة معه، ولم يعرف أحد أين مصيرهم.

(١٣)

اختصت إذاعة الغالية فيما مضى بإذاعة القرآن في أوقات بثها، لكنها مع الأحداث الجديدة في السطح، بدأت تبث بعض البلاغات الرسمية والنشرات الإرشادية، فكان أن بثت بعد خمسة أيام من الأحداث بياناً جاء فيه:

اطلع أصحاب السلطان شيوخ العشائر على ورقة المطالب التي تقدم بها بعض المعلمين، وأدعياء العلم على ظهر الغالية، وبعد تأمل ما ورد فيها ومناقشتها رأى أصحاب السلطان الشيوخ استنكار ما اشتملت عليه من باطل، فهو خلاف الواقع، خاصة وأنهم يحكمون شرع الله في أرجاء عشائرهم، وجرت العادة ألا يمنعوا أحداً من رفع ظلامته لهم. لكن ما فعله هؤلاء يتنافى مع الأدب الواجب لأصحاب السلطان. وقد عمل معدو الورقة على ترويج أسباب الفرقة وزرع الضغائن واختلاق المثالب أو تجسيمها مع التغاضي عن كل محاسن هذه السفينة المباركة والقائمين عليها، مما يدل على سوء قصد الذين كتبوها أو جهلهم بالواقع. والتغرير ببعض من حملها؛ مما جعلها من أجل مكاسب الأعداء الحاقدين على القبيلة. وأصحاب السلطان مشايخ العشائر إذ يستنكرون هذا العمل يؤكدون أنه عمل مخالف لمنهج النصيحة الشرعية وكيفية أدائها. كما يحذرون من أي شيء يثير الاختلاف بين أبناء القبيلة، سواء

أكان ذلك في الغالية أم خارجها. ولهذا فهم يحثون ركاب الغالية على التمسك بما عليه السلف الصالح وتابعوهم من لزوم الجماعة والمناصحة الصادقة بطرقها الشرعية، وعدم اختلاق العيوب وإشاعتها. والله الهادي إلى سواء السبيل.

أخذت الأيام والليالي تمر بطيئة على ركاب السطح، وأحسوا بأن أحوالهم تسير إلى الأسوأ، إذا أخذ الصقيع على السطح يزداد، وأجسامهم تكاد لا تقوى على تحمل هذه الأجواء القارسة في العراء. في الأيام التالية أعلن في الإذاعة أن أصحاب السلطان شيوخ العشائر - انطلاقاً من إحساسهم بمعاناة ركاب السطح - قد أصدروا أمرهم الكريم بتوزيع كنزات صوفية على جميع ركاب السطح. أحس الركاب أن هذا قد يعزيهم في مصائبهم خاصة مع شدة البرد التي لم تعد تحتمل.

في منتصف الليل، وبعد أن أخلد ركاب السطح للنوم سمعوا ارتطاماً شديداً بالماء، قاموا على أثره إلى جوانب السفينة باحثين عن مصدر الصوت، لكنهم لم يستطيعوا تحديده. عادوا إلى زواياهم متلفعين بأسمالهم. وفي صباح اليوم التالي أعلنت إذاعة السفينة البيان التالي:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾. صدق الله

العظيم. إنه في الساعة الثالثة بعد منتصف ليلة أمس أقدم المدعو زكريا على قذف نفسه في البحر من نافذة غرفته. إن ما عمله ذلك الرجل من قتل لنفسه التي حرمها الله يؤكد انحرافه عن جادة الصواب، لهذا فإن أصحاب السلطان شيوخ العشيرة إذا يأسفون لهذا الحادث، فإنهم يناشدون أبناء العشائر - حرصاً عليهم - معرفة ما يصلحهم في أمر دينهم ودنياهم عن طريق العلماء الربانيين، وأن يحذروا من الدعاوى المنحرفة التي قال بها مثل ذلك المغرر به، التي أثبتت الأحداث ضلاله وانحرافه وخروجه عن الهدى؛ مما أدى به إلى قتل نفسه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

وقع الخبر على ركاب السطح وقع الصاعقة على رؤوسهم، أصابهم الذهول مما يسمعون، لقد كانوا يعرفون من هو زكريا من الرجال، كما يعرفون ورعه عن مثل هذه الأمور، وانتشر الحديث همساً بينهم:

- **لقد كان من العقلاء، ولا يلحظ عليه أي خلل..**
- **كنت أعرف خلل عقل ذلك الرجل من حديثه..!**
- **لقد كان يقرأ من كتب معه.**
- **ما أفسد عقله إلا تلك الكتب.**
- **كان متوتراً دائماً..**

- **ألم يكن يصلى معنا؟**

- **بلى.. ولكن...**

- **ولكن، ماذا؟**

- **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا..**

- **إذن ما الذي أظله؟**

رد أحد الأشخاص هامساً:

- **وهل تصدقون كل ما تسمعون؟**

- **ولماذا لا نصدق؟**

- **ألم تسمع ما قاله البيان؟**

رد ذلك الشخص:

- **أين الذين قدموا العريضة معه؟**

- **لا بد أنهم لدى أصحاب السلطان شيوخ العشائر!**

- **وماذا يعملون هناك؟**

تحدث شخص لم يكن يشارك في الحديث:

- **ما تقوله يا هذا يفسد الصدور!**

وصمت ذلك الشخص عن قول ما يفسد..!!

ومضت الأيام ثقيلة على السطح، وأصبح ركابه لا يخشون من

obeikandl.com

الصقيع على شدته، بقدر ما يخشون من مجهول لا يعرفون كنهه. وفي صباح أحد الأيام، ظهر ما يزيدهم حيرة على حيرتهم.

عاد الأربعة إلى السطح، والتف الجميع من حولهم، وأمطروهم بالأسئلة:

- **ماذا عملتم مع أصحاب السلطان؟**

- **لا شيء.**

- **كيف أمضيتم الأيام الماضية؟**

- **مثلما تمضون أيامكم هذه.**

- **ما الذي جعل زكريا يقذف بنفسه في البحر؟**

- **لا نعلم..!**

- **هل كنتم ترونه؟**

- **نراه لماماً..**

- **ماذا كان يقول لكم؟**

- **لم يقل شيئاً.**

ولم يحصل ركاب السطح على أي إجابة شافية من هؤلاء الأربعة، لكنهم رأوا على وجوههم وأجسادهم أكثر من إجابة، وإن لم يقل أحد شيئاً. ومضى ركاب السطح أكثر حيرة فيما يرون، وأشد خشية مما يجهلون.

obeikandl.com

(١٤)

أعلن في الإذاعة أنه إدراكاً من أصحاب السلطان الشيوخ لحاجة ركاب السطح إلى التوجيه والإرشاد لهم في دينهم ودنياهم، فقد تقرر إقامة دروس دعوية بعد صلاة العصر من كل يوم.... وخرج لركاب السطح في اليوم التالي صاحب الغبطة حجة الدين العدوي في عدد من الرجال، وبعد أن أم الناس لصلاة العصر ألقى درسه الوعظي قائلاً:

الحمدلله الواحد الأحد الفرد الصمد، وبعد: فإن الإنسان خلق متجبراً على نعم الله، لا يشكرها حق شكرها، فعلى الرغم مما نحن فيه من نعم كثيرة، إلا أن القائمين بحق هذه النعم هم القليل، إذ ذكر لي من أثق بصدقه أن من بينكم من يتأخر عن الصلاة وخاصة صلاة الفجر، فالله الله بالصلاة، فمن ضيعها ضيع الدين. وإني أذكركم اليوم بما أنتم فيه من الخير في أموركم الدينية والدنيوية، واعلموا أن الله قد هيأ لكم علماء فضلاء، أئمة يسيرون بكم على منهج السلف الصالح. وهيأ لكم ولاة أمر صالحين مصلحين، فعليكم أن تضعوا أيديكم بأيدي علمائكم الأعلام، ناهلين من علمهم الصحيح، طائعين لولاة أمركم، ناصحين لهم في السر والعلن. واعلموا أيضاً إخواني بأن الكمال عزيز، فاستمتعوا بما أنتم فيه من النعيم، واسألوا الله المزيد من فضله وتوفيقه، ولنسع جميعاً

لإقامة الدين في نفوسنا في ظل شيوخنا، حفظهم الله ورعاهم، والسلام عليكم ورحمته وبركاته...

وبعد أن أنهى حجة الدين العدوي كلمته، قام يحف به رجاله، حتى عاد معهم إلى مسكنه في الجناح الخاص. وأخذ أصحاب الغبطة منذ ذلك اليوم يفدون إلى السطح، يعظون الناس، ويذكرونهم بوجوب الصلاح في العقيدة؛ لأن صلاحها فيه صلاح كل أمر، والترفع عن ملذات الدنيا؛ لأن الدنيا دار ممر، والآخرة دار مستقر.

وعى المصلون من ركاب السطح جيداً هذه الدروس، وآمنوا أن من الخير لهم الاقتناع بهذا الأمر لتستريح نفوسهم، خاصة بعد أن أصبحت السهرات اليومية الصاخبة من بهو السفينة تمنعهم من النوم إلى الفجر.

ذات صباح أعلنت إذاعة السفينة البيان التالي:

نظراً لضيق باطن الغالية عن الوفاء بحاجة أصحاب السلطان الشيوخ وضيوفهم الكرام فإنه سوف يستقطع جزء من السطح للوفاء بهذه الحاجات الملحة.

وفور الإعلان بدأت مجموعة من العمال يقودهم رجال ذوو سحنات تختلف عن سحنات أبناء القبيلة، يعدون السطح لاستقبال أصحاب السلطان وضيوفهم، وكان أول عمل قاموا به هو حصر الركاب في أحد الأطراف من السطح، ثم قاموا بوضع حاجز مرتفع

يفصل بين الجزأين. وبدأ العمل على أشده في الجزء المخفي عن الأنظار. في ذلك اليوم صعد إلى السطح واعظا، صاحب الغبطة حجة الدين البهلوي، وبعد أن حمد الله وأثنى على رسوله قال:

إنكم ترون حاجة أصحاب السلطان، شيوخنا الكرام إلى جزء من السطح؛ نظراً لضيق مساكنهم أسفل السفينة، خاصة بعد أن وفد إلينا السفراء والضيوف من أرجاء الدنيا للترحيب بهم في بحارهم؛ ولهذا فإن عليكم إخواني السمع والطاعة وعدم منازعة الأمر أهله فإن تلك هي الفتنة في الدين والدنيا. وأولو الأمر هنا هم أصحاب السلطان الشيوخ والعلماء، فلا ينازع العلماء فيما رأوه ولا الشيوخ فيما اتخذوه، بل ليقل كل منكم لنفسه: رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه ولنجعل الرسل بيننا وبين ولاة أمرنا علماءنا، فإنهم صفوة أهل العلم، والإيمان والحلم، وأهل البصر والبصيرة. وليعلم إخواني بأنا محسودون بسبب ديننا ودنيانا، وكم ساع لإفساد ذلك علينا. فلنقف في وجه الحاسدين المفسدين وقفة صادقة حازمة حاسمة مفوتين عليهم ما يريدون، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثم عاد حجة الدين مع صحبه إلى باطن السفينة، مودعين بمثل ما استقبلوا به.

(١٥)

بعد أن اقتطع الجزء الأكبر من سطح السفينة لأصحاب السلطان وضيوفهم، انتقلت الحفلات الموسيقية إلى السطح، وأصبحت الأصوات تصل إلى ركابه أكثر وضوحاً، وتبين لهم الأمر بصورة تكشف كثيراً عما خفي عليهم فيما مضى. وأجمعوا أمرهم على أن يخاطبوا في ذلك الواعظ الذي سيأتيهم بعد العصر.

في عصر اليوم ألقى حجة الدين الطاهر موعظته فذكرهم ببعض سمات الأخيار في هذه الدين، وقال:

تعلمون أن ديننا قد حث على إعفاء اللحى، وعلى عدم إسبال الثياب، وإني لأرى معكم الحليق ومن أسبل ثوبه حتى وصل إلى قدميه، وهذه لا تليق بالمؤمنين الذي يخشون الله ويرجون ما عنده. ففي حلق اللحية تشبه بالكفار - والعياذ بالله - وقد أمرنا بمخالفتهم. كما أن الإسبال يؤدي إلى الخيلاء، وهم أمر مستقبح من الإنسان بطبعه، فكيف إذا كان ديننا قد نهانا عنه، وغلظ الوعيد على كل من يسبل. اللهم أعز شيوخنا، دعاة الحق وانصرهم على من عادهم يا أرحم الراحمين.

جمع حجة الدين الطاهر نفسه، وأراد الانصراف بصحبة رجاله، إلا أن الجالسين ألحوا عليه في البقاء من أجل استفتائه في أمور دينهم ودنياهم. ومع الإلحاح بقي بامتعاض.

تكلم إمام الصلاة مرحباً بحجة الدين، ثم تساءل في استحياء:

- إننا ياصاحب الغبطة لا نستطيع النوم هذه الأيام من الصخب الذي بجوارنا، فما الحل الذي ترونه؟

حوقل غبطته، ثم تجشأ قبل أن يجيب، ثم قال:

- **نحن نعاني الأمر كما تعانونه، ولكننا نتغطى جيداً حتى لا نسمع ما يزعجنا.**

- **أليس هناك من حل آخر؟**

- **هل من حل؟ إن كان هناك من حل فاذكروه.**

- **أليس هناك من سبيل إلى إيقاف هذا الأمر؟**

- **للأسف ليس هناك من سبيل إلى ذلك، فما يحدث هو حفلات يقيمها ضيوف أصحاب السلطان، وهؤلاء وإن كانوا على غير ديننا، إلا أن لهم ذمة في أعناق الشيوخ. وقد ركبوا الغالية بموافقتهم - أعزهم الله - وما يوافقون عليه أو يأمرون به فهو من الدين، فطاعتهم من طاعة الله.**

- **ألا يمكن لكم يا صاحب الغبطة، وأنتم على ما أنتم عليه من علم مناصحة أهل الذمة هؤلاء؟**

- **لقد شرع لنا في ديننا وجوب إنكار المنكر؛ ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحب الله ورسوله؛ فإذا كان إنكار المنكر**

obeikandl.com

يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله؛ فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله.

- هل نصبر على هذه المنكرات ونتركهم في ظلالهم على ظهر سفينتنا؟

- لقد قلت المفيد، يا إمام الصلاة، وأن ما هم فيه ظلال. والظلال يمحق أهله، فهو وبال عليهم، لكن عدم الصبر على مثل هذه المنكرات قد يؤدي بنا إلى شرور لا يعلمها إلا الله. ومن تأمل ما جرى على القبيلة من الفتن الكبار والصغار رآها في إضاعة هذا الأصل، وعدم الصبر على المنكر، فطلب إزالته متولد منه ما هو أكبر منه....

تكلم شخص من آخر الصف موجهاً الحديث إلى صاحب الغبطة:

- ما الذي يجعلنا نصبر عليهم، ما داموا أصحاب منكرات، ولا يحترمون مشاعرنا..؟

- سبق أن أوضحت لكم أنهم أهل ذمة.

- ولماذا لا تعنيهم مشاعرنا مثلما نراعي لهم حقوقهم.

- لقد قدر مشايخنا عادتهم التي لا يصبرون عنها فوافقوا على مطلبهم، كما أنهم لم يعتدوا علينا ولا على

ممتلكاتنا؛ لهذا فلا يجوز لنا القول بأنهم تجاوزوا ما أعطاهم شيوخنا.

قال أحد الأشخاص، وقد أخفى نفسه في إحدى الزوايا:

- **لقد أعطاهم الشيوخ أكثر مما يستحقون....**

- **صمت الجميع انتظاراً لإجابة صاحب الغبطة على سوء الأدب غير المعتاد. أجاب صاحب الغبطة بهدوء:**

- **إن ما يقوله الأخ اعتراض في غير محله، إذ ليس من حقكم ولا من حقنا مناقشة الشيوخ فيما يرونه، فلهم نظرتهم البعيدة للأمور، وهم أدرى بالمصلحة منا، كما أن أهل السنة والجماعة يرون وجوب السمع والطاعة على الإنسان فيما أحب وكره، وألا ينازع الأمر أهله، كما ثبت ذلك في الصحاح، فأمر الإمام والولاية شأن عظيم. ولهذا أنصحكم بالاتعاض بمن سبقكم، ولا تفسدوا بمثل هذا القول دينكم ودنياكم.**

وقام صاحب الغبطة بعد أن أنهى حديثه، وقد اكفر وجهه. أسرع الرجال الذين صحبوه بإلباسه عباءته الصوفية المحلاة بشرائط ذهبية لامعة، وأحاطوا به في مسيرته، ثم تقدموا صوب باب السطح..

ابتسم أحد الركاب ،وهو يرى هذا المشهد وقال:

- **كذلك يجزي المحسنين!**

(١٦)

أعلنت الإذاعة أن أصحاب السلطان، شيوخ العشائر سوف يجتمعون لتدارس الوسائل الكفيلة بتطوير الغالية والرفع من كفاءتها، بوصفها رمزاً حضارياً يمثل القبيلة لدى جميع القبائل، كما أنها مورد اقتصادي مهم، سوف يرفع من عوائد التشغيل بعد التطوير. استبشر ركاب السطح بهذا الخبر قال أحدهم لصاحبه:

- **هل تتوقع أن يشمل التطوير سطح الغالية؟**

- **يبدو أن المقصود هو السطح فهو المكان الذي لم تقم عليه أي منشآت تقي ركابه حر الشمس وصقيع الليل.**

- **هذا عهدنا بالشيوخ، فإنهم يأبون أن يقع الظلم عليهم أو على أحد من أبناء عشائرهم!**

وهكذا أصبح حديث التطوير يعم أهل السطح.

و في المساء عقد في (قاعة الأمجاد) الاجتماع الأول لأصحاب السلطان، شيوخ القبيلة على ظهر الغالية.

دخل الشيخ أبو أيمن يتقدمه مجموعة من رجاله، وهم يحملون الخناجر الذهبية، وقد أغمدوها ضمن أحزمة ذهبية تلف ثيابهم الواسعة. وتلاه الشيخ أبو سعد وقد اصطحب مجموعة من رجاله، تمنطقوا بلفائف حريرية حمراء، وعقب ذلك جاء الشيخ أبو المكارم

ومعه رجاله في ثياب مزركشة مع مجموعة من الضيوف. وتبعهم بعد ذلك الشيخ أبو فخري، وأبو فصيح مع رجالهم الذين لبسوا ملابس تختلف عن لبس أبناء القبيلة. ويقول بعض العارفين ببواطن الأمور، إنهم يأخذون بكثير من العادات التي لم يعرفها أبناء القبيلة؛ نظراً لقربهم من الثغور، واختلاطهم بالقبائل الأخرى؛ لهذا فإن لغتهم يشوبها كثير من لكنة العجم. تأخر الشيخ أبو الفوارس عن بقية الشيوخ، إلا أنه عندما حضر، جاء وفي صحبته بعض الضيوف من الرجال والنساء، يتقدمهم مجموعة من الرجال وقد لبسوا العباءات الصوفية التي اشتهرت بها القبيلة ويتوارثونها من أسلافهم، ويتمسكون بارتدائها في المناسبات.

افتتح الاجتماع بالحمد والثناء على الخالق الذي سخر لهم الغالية يطوفون العالم على ظهرها. ثم بدأ الجلسة متحدثاً صاحب السلطان الشيخ أبو فخري:

- **الغالية مشروع لهذه القبيلة يطمح فيه إلى تحقيق أمرين: رفع مكانة القبيلة بين القبائل واستثمارها تجارياً، بحيث تحقق عوائد مجزية لعشائرنا؛ ونظرا لأن هذا التطوير يحتاج إلى خبرات فنية عالية، قد لا تتوفر لدينا، فإن السيد فوميل إبرهام أعد مشروعاً شاملاً للتطوير وسوف أدع الحديث له ليوضح لكم فكرته.**

قام السيد فوميل متحدثاً بلغته، لكن الأستاذ بيهان قام بالترجمة الفورية لما يقول:

- **شكراً لأصحاب السلطان الذين أعطوا فريقنا هذه الثقة الغالية، كما أود أن أشيد ببصيرتكم النافذة في القبول بمشروع استثماري وثقافي عملاق، وحرصكم على استثماره الاستثمار الأمثل... ينحصر مشروعنا التطويري في مرحلتين هما تطوير ما هو موجود على ظهر السفينة بالإمكانات المتوفرة، والمرحلة الثانية تطوير شامل لجميع أجزاء السفينة، وهذا يحتاج إلى الرسو في أحد الأحواض العائمة لنتمكن من إنجازه، وهذه المرحلة سوف تؤجل إلى أن تسنح الفرصة لتنفيذها. والآن أترك لكم فرصة مناقشة هذه المرحلة من المشروع التطويري.**

بدأ أصحاب السلطان في التداول بحضور الضيوف. قال الشيخ أبو المكارم:

- **إن تطوير أبناء هذه القبيلة على ظهر الغالية سوف يكون أكبر عامل مؤثر على تطوير القبيلة بكاملها.**

أكد الشيخ أبو فخري ما قاله الشيخ بهز رأسه، ثم أضاف:

- **إنها مكاسب حضارية ومالية للقبيلة لا يستهان بها.**

استأذن السيد فوميل في المشاركة بالرأي فقال:

obeikandl.com

- **إن تطوير السفينة سوف ينقل أبناء القبيلة نقلة حضارية، حيث سيطلعون على مظاهر الحضارة ويتفاعلون معها، كما أن المشروع سيقدم لأصحاب السلطان الشيوخ السيولة النقدية لتحقيق مشاريعهم التطويرية في عشائرهم.**

أشار الشيخ أبو أيمن بيده ثم قال:

- **يظهر من هذا المشروع التطويري أن الغالية سوف تصبح تحفة يتسابق عليها الركاب من جميع القبائل. ولكن ألا يحسن بنا مناقشة طبيعة هذه المشاريع، ومدى ملاءمتها لطبيعة القبيلة.**

أجاب الشيخ أبو فصيح:

- **قبيلتنا ليست معزولة عن القبائل الأخرى وما يجري على غيرها يجري عليها.**
- **ولكن لنا عادات وتقاليد، قد تتعارض مع هذه الخطط.**

أشار الشيخ أبو سعد بيده ثم قال:

- **ليشاركنا في اجتماعنا أصحاب الغبطة، وسيكون لرأيهم أثر كبير في الحكم على طبيعة مثل هذه المشاريع.**

عاد الشيخ أبو فصيح إلى تفصيل رأيه:

- **مثلما ذكرت لكم فإننا لسنا معزولين عن القبائل الأخرى، وإن**

obeikandl.com

أي تشكيك في المشروع قبل بدء التنفيذ سوف يؤخره، لهذا أقترح أن يبدأ التنفيذ، على أن يكون أصحاب الغبطة مطلعين على خطوات التنفيذ، فما رأوا فيه مخالفة لطبيعة القبيلة وتقاليدها يتم عرضه على مجلسكم الموقر لتروا فيه رأيكم..

أشار صاحب الغبطة حجة الدين الناجي بيده مستأذناً في الحديث:

- **لم نطلع على تفاصيل المشروع، وما وصلنا عنه فيه تجاوز كبير على الدين والتقاليد.**
- **همست السيدة روث ليفين في أذن الشيخ أبي سعد، هز رأسه ثم التفت إلى زملائه من أصحاب السلطان وتساءل بصوت مرتفع:**
- **من الذي سرب تفاصيل المشروع؟**

فلما لم يجب أحد على تساؤله، وجه نظره إلى صاحب الغبطة حجة الدين الناجي، وقال بلهجة هادئة لكنها حادة:

- **اطمئن ياصاحب الغبطة، فلن يكون هناك تجاوز للدين أو العادات، فنحن أدرى بهذا الأمر....**

وعاد صاحب الغبطة إلى الحديث:

- **إن مثل ما سمعنا مفسدة للدين والأخلاق.**

وأشار الأستاذ بيهان بيده مستأذناً أصحاب السلطان في الإدلاء برأيه، بوصفه مستشاراً للشيخ أبي سعد فقال:

- **بودي أن يعلم أصحاب الغبطة أن بعض المشاريع سوف توجه للسياح، وسيمنع أبناء القبيلة من ارتيادها، ولذلك فإنه لا مشاحة في ذلك.**

ظهر الارتياح على وجوه أصحاب السلطان لجواب الأستاذ بيهان، فأمنوا على قوله بهز رؤوسهم، لكن صاحب الغبطة حجة الدين الناجي سارع إلى القول:

- **لماذا لا يجري الآن عرض لجوانب المشروع أمام مجلسكم الموقر بحيث يمكن الحكم عليه؟**

اقتربت الآنسة سارة ساسون من الشيخ أبي فصيح، فحدثته همساً، فهز رأسه لها موافقا، ثم رد على تساؤل صاحب الغبطة حجة الدين الناجي بقوله:

- **ليس هذا المجلس مكاناً ملائماً لمثل هذا العرض، ولهذا أقترح فض الجلسة والاكتفاء بما جرى من مناقشة.**

ثم التفت إلى الشيخ أبي أيمن وقال:

- **إن صاحبك يا صاحب السلطان لا يصلح لحضور مجلسنا.**

هز الشيخ أبو أيمن رأسه إشارة إلى موافقته الرأي..!

(١٧)

التقى السيد فوميل إبرهام بركاب جناح الضيافة في الصالة الرئيسة منه وأعلن بدء الاجتماع، فبدأ الحديث عن جدول الأعمال:

- **لقد استطعنا الحصول على امتياز تطوير السفينة بفضل جهود الفريق، ويلزمنا متابعة الاستثمار فيها....**

تحدث السيد يوسف زامير:

- **توجد بعض الأصوات على السفينة ترفض التطوير، ويجب البحث عن خطط عملية لتسهيل العمل.**

تحدثت السيدة روث ليفين:

- **لقد استطعنا بفضل علاقتنا الحميمية مع أصحاب السلطان من استقطابهم إلى صف المشروع، ولم يبق إلا بعض المستشارين..**

قاطعها السيد يوسف زامير:

- **يمكن التعامل مع بقية المستشارين، لكن ما يحتاج إلى بحث أكثر وجود بعض أصحاب الغبطة المتزمتين، وهؤلاء إن لم نتدارك الأمر معهم، يمكنهم تعطيل المشروع.**

- **هل تعني أن لهؤلاء من السطوة ما يمكنهم من عمل ذلك.**

obeikandl.com

- يحسب لهم أصحاب السلطان بعض الحساب.

- ما مقترحات السيدات والسادة في هذا الشأن؟

قال السيد موسى تكواه:

- مازالت الخطط التفصيلية للمشروع غير واضحة لأصحاب السلطان ولا لمستشاريهم، ولعل هذا ما يجعلنا نبدأ في المشروع دون أي معارضة من أحد، وعندما يصبح المشروع في نهايته فإنه لن يسمح لأحد ما أن يعترض على ذلك.

قالت الآنسة راشيل:

- ما يزيد الأمر صعوبة، أن أصحاب الغبطة ينزوون بعيدا في الصالات، ويرفضون مجالسة أي غريب عنهم، ولهذا فلا بد من البحث عن كيفية التعامل معهم..

أيدت الآنسة سارة ساسون ما قالته الآنسة راشيل وأضافت:

- إن حفلات الأيام الماضية لم تقربنا إلى أصحاب الغبطة..

علق السيد فوميل إبرهام:

- إن أصحاب الغبطة يتحرجون من وجودهم في الحفلات الليلية ولا بد من البحث عن أسلوب يناسب طبيعتهم، وأقترح الاستفادة من آراء الأستاذ بيهان في هذا الشأن..

علقت السيدة روث ليفين:

- **يمكننا بحث الحلول الممكنة لهذا الأمر.. وسوف نستفيد من آراء الأستاذ بيهان، فهو شخصية واعية متفهمة لنا..!**

- **لنترك الأمر للسيدة روث ليفين وفريقها، ولنبحث عن إشكالية التمويل.**

قال السيد موسى تكواه:

- **سبق وأن اقترضنا من المصارف ما يمكننا معه البدء في تنفيذ المشروع.**

رد السيد فوميل إبرهام:

- **قد نحتاج إلى ما اقترضناه لتسهيل عملياتنا الخارجية، ولهذا لا أرى استنفاذ القرض الآن.**

تعني أن نبحث وسائل تمويل أخرى؟

- **هو ما أعنيه.**

تكلم السيد يوسف زامير:

- **لقد استطعنا أخذ امتياز التطوير بأقل الخسائر، ويمكننا تطوير إمكانياتنا في هذا المجال.**

علقت السيدة روث ليفين:

- **يمكننا أن نحقق هذا الأمر، ولكن نحتاج قبل ذلك إلى تنفيذ صالات اللعب والترفيه.**

- **تعنين البدء بها قبل غيرها؟**

- **إن مثل هذه الصالات ستسهل علينا كثيراً من مهامنا، كما أنها ستكون مصدر دخل جيد.**

قالت الآنسة راشيل:

- **يمكن أن يكون مجدياً البدء في تنفيذ غرف الاستراحات الخاصة.**

قالت السيدة روث ليفين:

- **يمكننا الاستفادة مؤقتاً من الغرف الخاصة بالمجموعات، ولهذا لا أرى أولوية لتنفيذ غرف الاستراحة..**

هز السيد فوميل رأسه مؤيداً ما تقوله السيدة روث، واستحسن الرأي بقية الحضور.

أكد السيد فوميل على ما توصل إليه الاجتماع والإذن ببدء التنفيذ..

(١٨)

بدأت الموسيقا الهادئة في قاعة الفردوس تستقبل ضيوفها كالمعتاد، وبدأ توافد الرواد من أصحاب السلطان، كل شيخ تحف به بعض حاشيته الذين ما إن يستقر به المقام في مكانه حتى يختفوا عن الأنظار. ثم أخذت الموسيقا تزداد ارتفاعاً، معلنة الترحيب بالشيوخ وصحبهم.

على مقاعد وثيرة متفرقة يحيط أصحاب السلطان بفناء متسع، تحف به الأضواء الملونة التي تتهادى على نغمات الموسيقا. ويقبل النادلون مرحبين بهم، معلنين استعدادهم لتقديم خدماتهم. في حين يجلس على طاولات قريبة موزعة بين مجالس المشايخ مجموعة من الضيوف ونساؤهم الذين ما يلبثون إلا أن يشاركوا الشيوخ مجالسهم. وفي أقصى القاعة ينزوي أصحاب الغبطة، وأنظارهم تتردد بين ما يجري على فناء المسرح وبين مجالس أصحاب السلطان.

تبدأ الحفلة بأغنية شعبية راقصة تؤديها إحدى فتيات الضيوف بلكنة أعجمية محببة للشيوخ؛ لهذا تنال تصفيقهم الشديد. يسعى النادلون سريعاً لتلبية طلبات الطعام والشراب التي ما تلبث أن تعمل عملها في الرؤوس والنفوس، فيطرب الجميع على أنغام الموسيقا، وشدو المغنية. يهز الطرب صاحب السلطان أبا

الفوارس فيبدأ بالتصفيق والتمايل على مقعده، في حين يرد صاحب السلطان الشيخ أبو فصيح مع المغنية جمل الأغنية، فيرتفع صوته لتسكت؛ فيشدو الشيخ ببقية جملها. ويصفق له الجميع محيينه على أريحيته وحبه للفن.

تقبل الآنسة راشيل محيية صاحب السلطان الشيخ أبا أيمن ومبتسمة ابتسامة عريضة للشيخ أبي الفوارس. ثم تتجه إلى مجلس الشيخ أبي المكارم وتنثني عليه في مقعده لتتحدث معه قليلاً، فيهز رأسه وتبتسم له ابتسامة عريضة، ثم تجلس على مقعد ملاصق له. تبلغ الآنسة راشيل العشرين ربيعاً، وتعنى كثيراً بلباسها وأناقتها التي طالما امتدحها عليه الشيخ أبو المكارم. كانت في هذه الليلة ترتدي صدرية من الحرير الأسود دون أكمام، تظهر من جسمها البض أكثره، في حين تلبس بنطالاً يكشف عن قدها الممشوق. حدق الشيخ أبو المكارم فيها فقالت له وهي تبتسم:

- **ما بك يا صاحب السلطان؟**

- **ليس بي شيء.**

- **ما الذي يجعلك ساهماً تطيل في نظراتك؟**

- **ألا تعلمين؟**

ضحكت بغنج وقالت:

obeikandl.com

- أبداً..لا أدري..!!

- رفع صوته بالإنشاد:

لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقي *** وللحب ما لم يبق مني وما بقي

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه*** ولكن من يبصر جفونك يعشق

قالت له وهي تضحك:

- لا أدري ما تقول، كلمني كما كنت تكلمني...

- ذاك قول قاله شاعر من قومنا ابتلي بما ابتليت به.

- أو تحب الشعر؟

- في بعض الأحايين يخرس اللسان ولا يجيب إلا الشعر.

- حدثني، فلعل لسانك يفصح عن مكنونك.

- كأنك لا تعلمين عن أمري شيئاً.

- قد أخمن، لكني لا أعلم.

- هو ما تخمنينه.

- أتعني أن هم عشيرتك هو ما يشغلك؟

- ما بالك ياراشيل تتمنعين عن الفهم؟

- لأنك لم تفصح عما في نفسك.

- ما أنا به تفضحه جوارحي.

obeikandl.com

- يبدو أني لست ممن يفهم لغة الجوارح.

- بل إنك ممن خلقن لذلك، ولكنك تريدين تعذيبي.

- كيف أغذب من.... (وتوقفت عن الحديث)

- من...؟ ماذا؟ هل تقصدين....

- هو ذلك.

وهام الشيخ أبو المكارم في نشوة عارمة، قرب يده إلى يد راشيل فاستسلمت له، وأحس أنه في عالم آخر.

أمسك الشيخ أبو أيمن يد سارة ساسون وقاما يرقصان على أنغام الموسيقا الحالمة التي بدأت تعزف منذ لحظات.. أسندت رأسها على صدره.. أحس بدفء أنفاسها.. كاد أن يغيب عن الوعي.. لولا أنها همست برقة:

- ما بالك ياحبيبي، هل أنت متعب؟

- أبداً، لم أكن أكثر سعادة ونشاطاً من اليوم.

- إذن ما بالك نسيت ما حدثتك عنه منذ قليل.

- لم أنس، ولكن الأمر يحتاج إلى تفكير.

- سبق أن بحثت هذا الأمر مع مستشاريك.

- وهذا ما يجعلني أتوقف كثيراً في الأمر.

obeikandl.com

- إن بيعك لبعض الأسهم أمر يعنيك بالدرجة الأولى فأنت من سادات القبيلة، والقائم بأمر عشيرتك.

- سيقول عني أبناء عشيرتي الكثير، ولن أسلم من ألسنتهم وأقلامهم...!

- هذا لو كان أمراً كبيراً، لكنها مجرد أسهم محدودة في السفينة.

- إن أسهم الغالية غالية كاسمها.

انتفضت سارة، وأبعدت رأسها عن صدره، ثم قالت بنظرات حالمة:

- وهل يغلو على حبيبتك؟!

وتأوهت فزكمت أنفاسه رائحتها الأنثوية، فأحس أن الدنيا تميد من تحته، فلم يلبث أن قال:

- لا يغلو عليك شيء!!

- إذن ما بالك تراوح في هديتك.

- ليتك تطلبين أمراً آخر مهما غلا.

- هذا طلبي الوحيد لحبيبي...!

- ثم ضمته إلى صدرها فما كان منه إلا أن قال:

obeikandl.com

- غال، والطلب رخيص..!!

كانت المغنية المشوقة القد تغني بلغة لا يعرفها الساهرون من الشيوخ ورجالهم، لكن لم يكن يعنيهم أمر الفهم، بل كان إحساسهم بها أبلغ من أي فهم، وقد تحقق هذا!! وهكذا استمتع بقية الساهرين بالمغنية..

خرج صاحب السلطان الشيخ أبو سعد يتوكأ على معاونية بعد أن أحس بخدر شديد يمنعه من القيام بنفسه كالعادة في هذا الوقت من الليل. وتأبطت السيدة روث زامير ذراع صاحب السلطان الشيخ أبي الفوارس، ومضيا مخلفين الأعوان وهم يجمعون ما تساقط منه مما غلا ثمنه وخف وزنه. في حين تحامل بقية أصحاب السلطان على أنفسهم ومضوا إلى النوم...

(١٩)

طور الخبراء من الضيوف الأنشطة السياحية في السفينة، فحولت بعض الصالات الجانبية إلى صالات لموائد اللعب، كما بدئ العمل في تطوير سطح السفينة حتى يكون مهيأ لقضاء الليالي الصيفية. وأعلن السيد فوميل عن إقامة حفلة مميزة بمناسبة الانتهاء من العمل في صالات اللعب، وأن مفاجأة الحفل قيام الآنسة تمار إشيل بوصلة من الرقص الشرقي. كان الإعلان مغرياً

بعدم التخلف لمحبي الجمال المترف مهما كانت صالات اللعب جذابة، والأنس بها لا يعادله أنس.

توافد أصحاب السلطان إلى أماكنهم في الصالة، وانزوى صاحبا الغبطة في زاويتهما القصية. وأخذت كؤوس الراح تدور بالرؤوس والأفئدة، حتى إذا زادت الحرارة في النفوس، وخفت العقول عن ممارسة رقابتها. دخلت الآنسة تمار تتراقص على أنغام الموسيقا فيتلوى جسمها، حتى كأنها تطير في الهواء، مما جعل التصفيق يعلو لها في أرجاء الصالة. وقام الجميع إجلالاً لطلتها البهية.

كانت الآنسة تمار من أوانس الضيوف اللواتي تمنعن كثيراً عن دعوات أصحاب السلطان، فلم تر جالسة على أي طاولة، بل كانت تهيم بعيداً على شرفات السفينة، مبتعدة عن العيون. لم تبلغ الثمان عشرة بعد، لكنها تمتاز بأنوثة طاغية، وقد فارع، وجسم مصقول؛ مما أكسبها جمالاً مترفاً آسراً، ومع ذلك فقد كانت تتمنع في إباء عن أي دعوة صريحة أو متوارية. كما كانت تلبس من الملابس السوداء ما يغطي جميع أجزاء جسمها، حتى إنها تغطي شعرها بمنديل أبيض طالما عرفت به، ووصفت على أثر لباسها هذا بالمتنسكة.

كانت تلبس في طلتها على معجبيها في الصالة عباءة سوداء، مشقوقة من الإمام، وتعتمر على رأسها منديلاً أبيض... دارت على

أنغام الموسيقا محيية الحاضرين، ثم ما لبثت أن أطلقت شعرها الطويل الكث، فعلا التصفيق، وفي الدورة الثانية فتحت أزرار عباءتها شيئاً فشيئاً، والأعين مبهورة لا ترف عنها، حتى كادت تتوقف القلوب عن النبض انتظاراً لما تتكرم به من جسمها للنظارة! وفي الدورة الثالثة خلعت العباءة ورمتها فعلا التصفيق وارتفعت التأوهات. وأوجم الجميع عن أي شيء إلا مرأى ذلك التمثال المرمري الذي لم ير غير هذه الليلة. أخذت تتثنى على أنغام الموسيقى، وقد خلا صدرها من أي شيء ساتر إلا من حمالة صغيرة بيضاء تربطها إلى كتفيها بخيطين رفيعين، في حين تلبس على نصفها الأسفل إزاراً خفيفاً مفتوحاً من جانبه، يظهر عند دورانها تبانها الأبيض.

بهر الجميع مما يرون، وأصبحت العيون تلاحق حركاتها وسكناتها التي جاءت موافقة لإيقاعات الموسيقا، تؤجج برقصها نار الحميا التي أخذ الحضور يكرعونها. وأخذ أصحاب السلطان يتسابقون على رمي النقود تحت قدميها، وعلى رأسها وسائر جسدها، وكل يحاول اقتناص فرصة أطول للاقتراب منها، حتى ولو كان ثمن ذلك بضعة آلاف من الدنانير. وعلى الرغم من أنها كانت تحيي المانحين بابتسامتها العذبة، إلا أن عينيها كانت ترمق الطاولة البعيدة في أقصى الصالة. أنهت وصلتها الراقصة، فأعادت لبس

عباءتها بطريقة استعراضية تخطف القلوب، ثم حيت الحضور، وغادرت ساحة الرقص. وعاد البرنامج الغنائي يتواصل.

تسللت تمار من الباب الخلفي للصالة وعادت إليها مرة أخرى بثيابها السوداء، واتجهت إلى الطاولة القصية. بهر صاحبا الغبطة بالمشهد، كان كل واحد منهما يمني نفسه بنظرة قريبة منها، لكنهما لم يكونا يحلمان بأن تكون على هذا القرب... حيتهما، لكنهما لم يردا، ولم تنتظر الرد، ولم تنتظر الدعوة، فجلست على كرسي قبالتهما، وهما مبهوران بما يريان، فبادرتهما بالسؤال:

- **ألم أعجبكما؟**

-.....

- **أقصد ألم يعجبكما رقصي؟**

هز أحدهما رأسه، وقال الآخر:

- **بلى.... بلى.**

- **إذن لماذا لم أر أي ترحيب بقدومي لكما.**

قالا بما يشبه الاتفاق على الحديث:

- **أهلا... أهلا... أهلا... المفاجأة هي التي حبست ألسنتنا.**

- **ألستم أربعة؟**

obeikandl.com

- بلى، ولكن صاحب الغبطة حجة الدين العدوي يكره السهر هنا، أما صاحب الغبطة حجة الدين الناجي، فهو لا يسهر مطلقاً، وقد اعتزلنا منذ مدة.....

قالت مشيرة إلى ذلك الذي يرفض السهر في الصالة:

- لماذا يكره السهر هنا ؟

- يرى في ذلك حرجاً دينياً..

- أنتما أكثر وعياً بأمور الدين والدنيا..!

- نرجو أن نكون كذلك.

- أعجبتني شخصيتكما فأحببت مشاركتكما السهرة، هل ترون مانعاً من ذلك؟

- بل على الرحب والسعة..

- ألا تشربون شيئاً يؤنسكما؟

- نشرب الشاي والقرفة..

- ولكني لا أحبهما، فهلا طلبتما لي ما أستسيغه؟

- هو كذلك.

وصب حجة الدين البهلوي الكأس الأولى لها، فشربتها على مهل، وهي تنظر إليه ملياً... اقتربت منه حتى لامس شعرها الأشقر

obeikandl.com

المنسدل على كتفيها صفحة وجهه، أحس بدوار شديد، فلم يستطع مقاومة الدعوة بأخذ كأس من يدها، فشربه على عجل.

رأى حجة الدين الطاهر ألا بأس بمشاركتهما، فأخذ الكأس الأولى من يدها، ثم توالت الكؤوس، حتى صدح منشداً:

إن لم يكن وصل لديك لنا ❖❖❖ يشفي الصبابة فليكن وعد

إن تتهمي فتهامة وطني ❖❖❖ أو تنجدي، إن الهوى نجد

ولم ترض تمار إلا أن تودعهما بقبلات خاطفة. أخذ كل منهما يضع يده على موضع القبلة، وأخذا يتحسسان بها شواظاً من نار تؤجج قلبيهما، لكنهما قاما مسرعين يتلفتان خلفهما حتى وصلا إلى غرفتيهما.

لم يستطع حجة الدين الطاهر أن ينام... أخذ يتقلب ذات اليمين وذات الشمال..هل ما كان اليوم حقيقة أم حلماً... لقد كانت بيننا بشحمها ولحمها... ولكن هل يعقل أن تأتي إلينا وتجالسنا وتترك الشيوخ أصحاب الجاه والمال... لا أعتقد ذلك.. لكن رائحة شعرها النفاذة ما زالت تعطرني... أكاد أشمها الآن، بل إني أشمها... وذلك النحر هل هو حلم أيضاً..؟ إن نحرها أصفى من الماء، وأنصع بياضاً من أي بياض.. آه..! وذلك النهر المفضي إلى.... حينما أكبت علي. لم أرها قد لبست شيئها يحجبهما، لكني لم أر غير أعلاهما... أعوذ بالله منك يا شيطان...

انقلب على جانبه الآخر، لكن مرأى نحرها ونهره لم يبرح مخيلته. ولما حان وقت الصلاة قام إلى المصلى الذي لا يؤمه إلا القلة من ركاب الأجنحة وأصحاب الغبطة، فصلى معهم كالعادة، لكنه افتقد حجة الدين البهلوي، ولم يسأل عنه. كما لم يحاول أن يطرق أي حديث معهم..

نام حجة الدين البهلوي في ثياب السهرة، ولم يدر عن نفسه إلا بعد أن ارتفعت الشمس في كبد السماء، فأخذ يلعن الخمرة، والنساء اللاتي منعنه من الصلاة في وقتها!!.

وعندما التقاه حجة الدين الطاهر عند صلاة الظهر، سأله على استحياء:

- **كيف حالك البارحة؟**
- **على أسوأ حال...**
- **ماذا جرى لك؟**
- **ما جرى لك!**
- **أفصح، ماذا تريد أن تقول؟**
- **هل الشاهد يحتاج إلى أن يفصح له؟**
- **أو تريد أن تقول، إن ما رأيته البارحة كان حقاً وليس حلماً.**
- **هذه شعرة من مفرقها مازلت أحتفظ بها!!**

obeikandl.com

- أو تقول الحق؟!

- هو ما قلته، لكنك لن تراها!!

وافترقا وقد احتفظ كل منهما بذكرياته يجترها.

(٢٠)

افتتحت صالتا اللعب بأربع طاولات، وجاء إقبال الشيوخ عليها قليلاً، خاصة مع إحساسهم بالحرج من حرمة مثل هذا اللعب، إلا أن الأمر فسر على أنه مجرد لعب للتسلية، وليس من القمار الذي ورد فيه نص التحريم! ووجد الأعوان فيها بغيتهم من التسلية بعيدا عن عيون الشيوخ. لكن الصالة قد أعدت في أصلها لتسلية من يستطيعون دفع الثمن الأعلى..!! لهذا بادرت الأوانس إلى الموائد تشجع اللاعبين وتحثهم على إلقاء الهزيمة بخصومهم، وهكذا عمرت مجالسها باللاعبين، وبدأ سيل الأموال يتحرك إلى الجيوب الاستثمارية...!

كان صاحب السلطان الشيخ أبو أيمن لا يرضى أن يمارس هوايته في اللعب حتى يرى الآنسة راشيل مقبلة عليه، فيبادرها مرحباً ويناغيها منشداً:

- يا ظبية البان ترعى في خمائله

ليهنك اليوم إن القلب مرعاك

فترد عليه الترحيب بابتسامة عريضة على محياها، ثم بغمزة من عينيها، وتمسك بيده بين يديها ويتجهان معاً إلى مائدة اللعب. كان يقول لها:

- **إن اليوم الذي لا تكونين فيه بجانبي يكون يوم نحس.**
- **إنك لاعب ماهر، فكيف يكون يومك يوم نحس؟**
- **الورق اللعين لا يقدر مهارتي.**
- **أتقصد أني تميمة تعلقها على صدرك لتبعد النحس عنك أثناء اللعب؟**
- **بل - وأنت الصادقة - أعلقها في صدري.**

فتضحك حتى ينسى الشيخ نفسه ويبدأ اللعب.

كان الشيخ يأبى أن يلعب بالقليل، فكانت الآنسة راشيل تطري فيه كرمه وكرامته العالية، وتهديه قبلة بعد كل مبلغ ضخم يضعه على مائدة اللعب. لكنه يحصل على أكثر من قبلة حينما يخسر المبلغ؛ لهذا كان يخرج من الصالة مسروراً دائماً مهما كانت خسارته، وكان يقول للآنسة راشيل، وهي تتأبط ذراعه:

- **أنا رابح دائماً ما دمت بجانبي.**
- **فترد عليه بغنج ودلال:**
- **لست بجانبك، بل بين يديك...!!**

فينتشي بهذا الغزل، فتودعه بقبلة، وتعده بأكثر منها، وتمضي في حال سبيلها. وكان صاحب السلطان قد خسر الكثير بين يدي الآنسة راشيل، لكنها كانت توسعه قبلاً حتى ينسى ويعود إلى نشاطه في اللعب.

كان المستثمرون من الضيوف يشرفون على إدارة الصالة، كما كانوا يظهرون في كثير من الأحيان لاعبين أنداداً لأصحاب السلطان عندما يعز الند أو اللاعب القادر على دفع مبلغ المنازلة خاصة مع الشيخ أبي سعد، الذي يحضر مبكراً للصالة، ولا يغادرها إلا في الهزيع الأخير من الليل.

كان يجلس متربعاً على كرسيه وبجانبه الآنسة مريام والآنسة هيدافا. ويخسر الكثير ليكسب القليل، وقليله مع (فلقتي القمر) كبير، كما كان يقول! بعد أن شرب من يدي مريام انتشى للعب والنزال فما كان من السيد موسى تكواه إلا أن أنقذ الموقف الحرج مع زبون الصالة الكريم كما كان يطريه دائماً. قال له:

- **إن اللعب معك ياصاحب السلطان يشرفني.**

- **واللعب معك يسريني، لكن ثمنه كبير..!!**

- **وهل يكبر على سموكم شيء؟**

- **حيلة أعرفها منك...!!**

- **أنقذت الآنسة هيدافا الموقف الجاد قبل أن يتوتر، فاقتربت من الشيخ ووضعت يدها على شعر رأسه، ثم مسدته حتى وصلت إلى رقبته، ودلكتها قليلاً.....**

- **آه... هذه يريحني من يديك كثيرا يا آنسة هيدافا..!**

- **لا أمل لي إلا راحتك.**

ثم واصلت التدليك حتى كاد أن يصيبه الخدر، فوضعت الآنسة مريام يديها على صفحتي وجهه حتى انتعش، وبدأ اللعب.

كانت الآنسة مريام تدفعه إلى رفع قيمة كل جولة من جولات اللعب في حين كانت الآنسة هيدافا ترقب أوراقه، وتبتسم، وتغمز من بعيد، وقد تشارك في التشجيع إذا لزم الأمر.

يشتكي السيد موسى تكواه:

- **أنا وحيد هنا، وأمامي ثلاثة خصوم...!**

فيقهقه الشيخ، ويقول:

- **ولكنك تغلبنا.**

- **هذا من كرمك، وجودك علي.**

- **هل من كرمي أنِ أخسر هذه الليالي ما يعادل قيمة أسهمي في هذه الغالية....؟!**

- **لقد خسرتُ الكثير، ولكن على قدر ما أملك.**

فيرد بعد أن يحس بأنفاس فلقتي القمر على صفحتي وجهه:

- **ولكن لا يهم.. لا يهم، فالمال غاد ورائح...!!**

وفيما كان اللعب على أشده في الصالة إذا بالشيخ أبي الفوارس يزبد ويرعد، ويتوعد مزمجراً!!

توقف الجميع عن اللعب، وتوقف النادلون عن تقديم الطلبات. قام الشيخ أبو فخري من مجلسه؛ ليعرف الأمر، فسأله:

- **ما الذي أغضبك يا صاحب السلطان؟**

قال بصوت مرتفع:

- **ابن الفاعلة هذا..!**

كان يجلس أمامه السيد هيرمان هادئاً لا ينبس ببنت شفة.

- **وما الذي عمله؟**

- **لقد كسب الملايين دون وجه حق..!**

- **ألم تلاعبه؟**

- **بلى.. ولكنه كان يغش في اللعب..!**

- **ولماذا لم تتوقف عن اللعب؟**

- **كنت آمل أن أسترد ما خسرته معه بغشه وخداعه..!**

- **وهل كسبت شيئاً منه؟**

- **لم يترك لي الخداع فرصة الكسب.**

obeikandl.com

- إن حكم المائدة فوق الجميع..!!!

- إن لم يرد لي ما خسرته هذه الليلة فسوف أرميه في البحر.

- اهدأ، يا صاحب السلطان فعهدي بك تزن أمورك بالعقل..

- وهل ترك هذه المرابي عقلاً لي..؟

ولم يستطع تهدئته أحد، بل كان يثور كلما بدرت منهم أي إشارة إلى وجوب التسامح، وأن حكم اللعب يقبل به الجميع مهما كانت عواقبه.

حاول القائمون على الصالة البحث عن حل لهذه المشكلة المستعصية.... جاءت الآنسة تمار تتهادى في مشيتها، وقد لبست صدرية شفيفة، وغطت ما بقي من جسدها بنصفية حاسرة.

كان مقدمها غير معتاد؛ لذا فقد اتجهت العيون لها، وشده أصحاب السلطان لمرآها الفاتن، وقدها المياس، حتى إنهم شغلوا بها عن أبي الفوارس وزمجرته، فتساءلت بصوت مرتفع:

- ما بكم؟!

لم يجبها أحد، فاتجهت في مسار مستقيم إلى مائدة اللعب التي يجلس إليها الشيخ أبو الفوارس... كظم غيظه... وبلع ريقه الذي جف من قذائف السباب التي أرسلها على خصمه، ثم التقط أنفاسه اللاهثة وحياها.

أوسع لها مكاناً للجلوس... انسل السيد هيرمان من مقعده... ابتعد الشيخ أبو فخري وعاد إلى مقعده، وبدأ النادلون في تقديم الطلبات...

سألته برقة وتلطف يشف عن مزيد من الاهتمام به:

- **ما بك يا صاحب السلطان؟ أراك غاضباً..!**

- **مخادع أفسد ليلتي..**

- **يعز علي أن يتعكر لك مزاج..وأنا هنا معك. ألا يريحك وجودي؟**

- **لقد كان ذلك مطلبي منذ أمد.**

- **وها أنذا أحقق ذلك المطلب.**

- **ألم يكن تحقيق المطلب إلا في هذه الليلة التي عكر صفوها ذلك المخادع..؟**

- **دعك منه، وانس أمره..**

- **كيف أنسى خسارتي معه... وخداعه لي؟**

- **الخسارة تعوض، وأمامك الليالي القادمة بطولها.**

- **نصيبي في الغالية لا يعوض...!!**

عاجلته، وكأنها لم تسمع ما قال:

- **سأكون نديمتك الليلة القادمة، وسأحتفل معك بالربح.**

- هدأت نفسه قليلا، لكنه قال بيأس:

- خسرت أسهمي كلها..!!

- كل يخسر ويعوض ما خسر... خسر صاحب السلطان الشيخ أبو المكارم بعض أسهمه، وخسر صاحب السلطان الشيخ أبو أيمن جل أسهمه، وعوض بعضها، وخسر صاحب السلطان الشيخ أبو سعد أكثر من قيمة أسهمه، لكن اللعب خسارة وربح، فمن خسر اليوم سيربح غدا... هكذا هي مائدة اللعب...

ثم ابتسمت له، وطبعت على خده قبلة سريعة... أيقظت أحاسيسه تلك القبلة، فرأى ما تشف عنه الصدرية، فمال برأسه إليها.. احتضنته، أدركت أن حمياها قد لعبت برأسه، فقالت له:

- هل طابت نفسك؟

- الجرح غائر..

ثم بضمة همست له:

- ألا يمكن أن أداويه؟

رد وعيونه تحمل آهات الشوق:

- هل تفعلين؟!!

- أمسكت به فقام من مجلسه ، ووضعت رأسها على كتفه، ومضيا...!!

obeikandl.com

(٢١)

انقسم ركاب الأجنحة والغرف في السفينة بين النادي الليلي وبين صالتي اللعب. وكان صاحبا الغبطة البهلوي والطاهر يكتفون بتزجية الوقت وهما ينظران إلى المغنيات، ويتحسرون على تلك الليلة الحلم، التي رأوا فيها تمار عن قرب، وسرحا طرفيهما في النحر ونهره. وأصبحت سهراتهما لا تخلو مما يشرب لينسيهما لوعة الوجد الذي أشغله مرأى تمار في نفسيهما.

اعتدل حجة الدين البهلوي في جلسته، وهو ينظر إلى تلك المغنية التي لا يعي من غنائها إلا تلك البحة في صوتها، وإن ما فتئت تحرك شغاف قلبه، وقال:

- **أما آن لنا أن نعود إلى غرفتينا؟**

أجابه حجة الدين الطاهر بتلعثم:

- **نعود إلى ماذا؟ نعود إلى الوحشة والفراش البارد و...! لنبق حتى ينتهي القوم مما هم فيه.**

- **ولكني أراك قد أكثرت، حتى كادت قواك أن تخور.**

- **ما زلت.. مازلت في كامل وعي وقواي...انظر...انظر...**

ثم قام ليري صاحبه إنه في كامل وعيه، لكنه سقط على

الكرسي مرة أخرى فما كان من حجة الدين البهلوي إلا أن أمسك به وأقامه حتى اعتدل، ثم سار به على مهل وهو يغني:

وشادن من بني كسرى شغفت بها

لو كان أنصفني في الحب ما جارا

في ساعة متأخرة من الليل، انتبه حجة الدين الطاهر على طرق خفيف على باب غرفته... قام مسرعاً وهو يصلح هندامه، ويعدل من عمته، فلعل الطارق أحد رسل الشيخ... فتح الباب، وعلى الرغم من أن توتره قد ازداد، إلا أن الأمر لم يكن كما توقع، أو صوره له خياله. لقد كان الطارق شخصاً تنكر في رداء أبيض فضفاض، وأخفى معالم رأسه بكوفية تغطي معظمه... أجفل حجة الدين البلوي مما يرى! وعلى الرغم من ملامح التنكر التي أسبغها الشخص على نفسه إلا أن ملامح الحقيقة كانت أبين من أي خفاء. لقد كانت تمار بقدها المشوق، ونحرها الذي ألهب مخيلته حتى لم يعد يفارقه في رواحه ومجيئه.

وقف برهة لا يستطيع استيعاب الموقف، وهل كان يحلم بعد ليلة عذاب مع صورتها، أم أنها حقيقة تتكرر مرة أخرى.. لكنها ما لبثت أن حسمت الموقف حين ضحكت برقة، وقالت:

- **ألن تأذن لي في الدخول؟**

- **بلى.. بلى.. تفضلي.. تفضلي..!!**

ودخلت وأغلقت الباب خلفها. أحس حجة الدين الطاهر أن قلبه يكاد يخرج من بين ضلوعه، جف ريقه فلم يعد يستطيع الكلام، اللهم إلا من ترديد، أهلاً.. أهلاً..

بادرته بالحديث:

- **ألم تكن زيارتي متوقعة..؟**

- **كانت حلماً لي، لكنها لم تكن متوقعة أبداً..!**

- **حلم... (ثم ضحكت) إذن، هأنذا أحقق الحلم لك!**

- **لست متأكداً إلى الآن، فلا أحسبني إلا في حلم.!**

أمسكت بيده، ثم قالت:

- **والآن، ألم تتأكد من أن تمار هي التي أمامك وليس خيالها؟**

وضحكت ضحكة أحس بها تصعق نياط قلبه، فقال:

- **كأني الآن تأكدت.....!!**

ثم قالت هي وتتلفت يمنة ويسرة:

- **أليس لديكم مكان تجتمعون فيه غير النادي الليلي؟**

- **لدينا صالة ملحقة بغرفنا.**

- **ألا تجتمعون فيها؟**

- **نجتمع أحياناً، لكن الملل يصيبنا.**

obeikandl.com

ألقت تمار رداءها على أطراف معصميها فظهر أعلى جسمها بضاً ناصع البياض يضج بالأنوثة. ثم قالت له:

- **ولو شاركتكم مجلسكم؟**

- **أنت جادة فيما تقولين؟!!**

- **هو ما أقول.**

- **إذن نعتزل الغالية وأهلها، بل نعتزل الدنيا كلها!**

ابتسمت، وقالت في دلال:

- **إلى هذه الحد تكون مكانتي لديك؟!!**

بدأ الهيام يأخذ منه كل مأخذ، فقال:

- أو تشكين في ذلك؟ أم هو دلال العذارى؟

ثم قالت بجدية لم تكن عليها في سالف حديثها:

- **ولكن لي شرط..!!**

- **لك كل شروطك.**

- **أو تقبل قبل أن تسمع مطلبي.**

- **مطاعة قبل أن أسمعها، ولك أن تعرضيها.**

- **أن تجتمعوا كلكم في الصالة الملحقة بغرفكم.**

- **أنت تعرفين أن حجة الدين الناجي ينام مبكراً؛ لكبر سنه،**

obeikandl.com

ولا علاقة له بالغالية من قريب ولا من بعيد، وحجة الدين العدوي لا يقبل السهر معنا.

- سوف أتسامح معكم بشأن حجة الدين الناجي.. لكن حجة العدوي لابد من حضوره..!!

- إن إقناعه صعب، وأمر حضوره أصعب.

- هل يعترض على السهر من حيث المبدأ؟

- أظنه كذلك..

- أحسبه لا يريد السهر في الأماكن العامة.

- قد يكون، ولكن ألا تعفينني من هذا الشرط؟

- هل تراجعت عن وعدك؟

- لقد وعدتك فيما أملك، لكن طلبك فيما لا أملك!!

- ولكني معجبة بكم، وأحب أن أسهر معكم جميعاً، وآنس بقربكم، وأمتع نفسي بحديثكم!

قالت ذلك، ثم اقتربت منه، حتى ألصقت كتفها العاري بكتفه، فأصابت بأنفاسها وجهه، فأحس برعشة شديدة تصيب سائر جسمه. لم يملك نفسه فمال عليها، لكنها ابتعدت عنه وقالت:

- هذا بعد أن نلتقي.

- هل هذا وعد منك؟

هزت رأسها بابتسامة ساحرة، وودعته بقبلة في الهواء..ثم عادت للبس ردائها الذي حسرته، وخرجت.

وأخذ حجة الدين الطاهر يئن، ويتأوه منشداً:

- **ودعته وبودي لو يودعني ❖❖❖ صفو الحياة وأني لا أودعه**

أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ورأسه يتأرجح ما بين ابتساماتها ووعدها، وشرطها الذي لا يدري كيف يستطيع الوفاء به. لم يستطع النوم بقية تلك الليلة، حتى التقى حجة الدين البهلوي بعد الصلاة، فذكر له الأمر، وذكر له وعد تمار بمنادمتهم، لكن على شرطها. ولم يذكر شيئاً غير ذلك!.

كانوا أربعتهم يروحون عن أنفسهم في مساء كل يوم قبل الغروب على الشرفات الخلفية للغالية، ويتناقشون فيما يجب عليهم من برامج دعوية لركاب السطح، قال حجة الدين الطاهر:

- **ألا ترون أن الوقت في الغالية ممل إن لم نسر عن أنفسنا؟**

أجابه حجة الدين البهلوي:

- **هو ما تقول، ولهذا فلا بد أن نكثر من اجتماعاتنا، ولا نكتفي بمثل هذه اللحظات القليلة قبل الغروب.**

رد حجة الدين الناجي بهدوء:

- **أما أنا فلا طاقة لي بالسهر، ويكفيني هذا الاجتماع، والحمد لله على نعمته.**

ثم أخذ يبتعد حتى غاب عنهم. رد حجة الدين العدوي بشدة:

- **ألا تجتمعان كل ليلة؟**

أجاب حجة الدين البهلوي:

- **بلى، ولكننا سئمنا اجتماعنا دونك.**

- **أنتم تعرفون رأيي في مثل ما تعكفون عليه.**

- **ما تقوله هو الحق، ولذلك فنحن نريد أن نبتعد عن تلك الأماكن التي نراها لا تتناسب مع وضعنا، وليس من وسيلة إلا بالاجتماع في مكان سكننا.**

- **هل تعنون أنكم تبتم عما أنتم فيه من تجوز.**

- **هذا ما نأمله.**

- **إذا كان الأمر كذلك، فلا بأس من اجتماعنا بعيداً عن صخب الليل في هذه السفينة.**

- **وهذا هو ما يجعلنا نسري عن أنفسنا بمثل هذا الاجتماع..**

وبدأ أصحاب الغبطة يجتمعون في الصالة الملحقة بجناحهم. وأنس حجة الدين العدوي للسمر البريء، في حين كان حجة الدين البهلوي، وحجة الدين الطاهر في انتظار الموعد المضروب.

ذات ليلة سمع أصحاب الغبطة وهم في مجلسهم بطرق خفيف على الباب... أنصتوا... استمر الطرق..نظر كل من حجة الدين

البهلوي وحجة الدين الطاهر إلى بعضهما، لمعت عيونهم، وكادت الابتسامة أن تظهر على شفاههم. وكان لا بد من معرفة الخبر.

قام حجة الدين الطاهر ليرى من الطارق، ثم ما لبث أن عاد تتبعه امرأة متلفعة في ثياب سوداء تغطيها من أعلى قامتها حتى أخمص قدميها.

أجفل حجة الدين العدوي لمرأى المرأة، فوجه حديثه لها مباشرة:

- **ليس هذا مكانك يا امرأة.**

ثم موجهاً الحديث لحجة الدين الطاهر:

- **لماذا سمحت لها بالدخول؟**

فأجاب بتوتر شديد:

- **لم تستأذن في الدخول، واسمع منها مباشرة، لقد طلبتك بالاسم.**

ثم التفت إليها حجة الدين العدوي قائلاً:

- **ماذا لديك يا امرأة؟**

أجابت بصوت منخفض، وعلى استحياء:

- **لي اهتمام كبير بدينكم، وأريد أن أعرف المزيد.**

- **اهتمامك بالدين يسرنا، ولكن ليس هذا مكان الحديث معك.**

obeikandl.com

- وأي مكان تراه مناسباً غير هذا؟

- كل الأمكنة إلا أن تكوني معنا في خلوة.

- وهل تراني أستطيع مقابلتكم علانية؟

- وممن تخافين؟

- أليس لي أهل يحرصون علي و...؟

- هل تعنين أنهم.....

- هو ما فهمتة ياصاحب الغبطة.

- ولكن وجودك معنا مثار القول والقيل، كما أنه مخالف لتعليم الدين، ويخشى على سمعتك منه.

- إذا لم أكن آمنة معكم، فأين الأمان؟

تدخل حجة الدين البهلوي في الحديث:

- القاعة واسعة، ويمكنها أن تكون في مكان قصي منها، تسمعنا ونسمع منها...

- لكن الأمر قد يتطور، ويؤول على غير هذا، ومهما كانت أهدافنا سامية، فلن يشفع لنا!

أجابت بانكسار، وهي تحكم ملاءتها على رأسها :

- لن أحضر إلا بعد بدء سهرات السمر المسائية، فأنا لا تروقني

مثل تلك الحفلات، وأجدها فرصة للاستفادة من علمكم.

رد حجة الدين العدوي:

- **الأمر يومئذ لله، هو ما تريدين.**

ثم بصوت خفيض قالت:

- **الشكر لكم على قبولكم تطفلي على مجلسكم الموقر، وإني لواثقة بجدوى دراستي على أيديكم.**

وبدأت الآنسة تمار تحضر مجلسهم كل يوم، وتظهر من الوقار ما جعل حجة الدين العدوي يطمئن لها يوماً بعد يوم، ويمحص صدق سريرتها. في حين أن ذلك قد وقع في نفسي الطاهر، والبهلوي موقعاً غير حسن، فما كان هذا ما يرجون، كما لم يجدا تفسيراً واضحاً لمثل هذا التحول في أسلوب الآنسة تمار. وحاولا الانفراد بها ليسمعا منها ما يرد عليهما صبوتهما، لكنها لم تجعل لهما فرصة لذلك.

مع استمرار الدروس المسائية بدأت تتحلل قليلاً من حشمتها، بما أظهر شيئاً من جمالها، وكان لذلك أثره البين في نفوس أصحاب الغبطة، إذ عاد الشوق القديم يتأجج إلى الاثنين، ووجد متيم ثالث.

لم يعد لمجلسهم المسائي أي معنى، إذا تأخرت الآنسة تمار عن الحضور. وإذا كان الاثنان يتساءلان ويشتكيان الجوى بينهم، إلا

أنهما احتفظا بمشاعرهما عن الثالث الذي لم يفصح لهم عن شيء، إلى أن جاءت ليلة حدثهم فيها عن مشاعره:

- **ألا ترون أن المرأة فيها صلاح وعفاف؟**

أجاب حجة الدين البهلوي:

- **يظهر ذلك من احتشامها، كما أنها غير متبذلة كما يعهد من مثيلاتها من أولئك الأقوام.**

هز حجة الدين الطاهر رأسه بالموافقة ثم أردف:

- **ويبدو أنها تتقدم في مناقشتها لأمور الدين.**

أيد حجة الدين العدوي قولهما:

- **هذا ما لحظته عليها في الآونة الأخيرة.**

ثم قال حجة الدين البلوي:

- **يبدو أن لديها من الذكاء والفطنة ما يجعلها تدرك الفروق الدقيقة في الدين!**

- **وهذا ما جعلها مناقشة ممتازة.**

قال حجة الدين الطاهر:

- **ألا تراها بعد لم تقتنع بالدين؟**

فأجابه حجة الدين العدوي:

obeikandl.com

- إن القناعة بالدين أمر بعيد الغور، ويحتاج إلى أمد أطول مما نظنه.

- لكني آراها على الطريق في ذلك.

- وهذا ما يجعلني أطرح عليكم اليوم أمراً أهمني كثيراً...!!

رد عليه الطاهر بدهشة:

- خيراً إن شاء الله، ما الذي أهمك بشأنها؟

- إن لدي ميل إليها، ولي رغبة في الزواج بها، فماذا ترون؟

بهت المتيمان السابقان، وفغرا فاهيهما كأن لم يسمعا بأمر زواج من قبل، فكرر السؤال عليهما:

- ما ذا ترون؟

- وهل تقبل بذلك؟

- هي راغبة في أخلاقنا وديننا، ولا أحسبها ممانعة فيما يحصنها، خاصة وأنها لم تر منا ما يسيء إليها!

- وهل هذا سبب كاف لقبولها الزواج؟

- ولماذا لا يكون كافياً؟

- قد يكون كافياً إذا كانت الدوافع قوية.

obeikandl.com

كانت مبادرة حجة الدين العدوي السريعة والخاطفة أقوى من مبادارات العاشقين وأسرع؛ لذلك لم يجدا أي فرصة لتدارس وضعهما المتأزم إلا بالنظرات الخاطفة بينهما.

وأقبلت الآنسة تمار كعادتها في الليالي الماضية، لكن حجة الدين العدوي لم يجعل لها فرصة البدء في نقاش حول الأديان، بل بادرها بالحديث:

- **لقد مكثت معنا ليالي ليست قليلة، وساعات طويلة، فعرفنا فيك الخلق والعقل، ونأمل أن نجد فيك الدين أيضاً...**

ابتسمت الآنسة تمار ابتسامة عريضة ثم قالت:

- **كلامك ياحجة الدين يفرحني لكنه يخيفني، إذ أحس أن وراءه شيئاً غير هذا الإطراء...**

رد عليها وهو مطأطئ رأسه:

- **فطنتك، كما أعهدها قد دلتك، وآمل أن ترشدك إلى القرار الحكيم فيما أعرضه عليك.**

- **كلي آذان صاغية، فلم أعد احتمل هذه المقدمات!!**

- **لقد وقعت في نفسي موقعاً جميلاً، ولهذا فإني أرغب في الزواج منك، فماذا ترين؟**

احمر وجهها وأظهرت الارتباك ثم قالت:

obeikandl.com

- **عرض خطير، لكنه مغر على الأقل بالنسبة لي، ولهذا اترك لي فرصة التفكير.**

ومضت ليلتان بعد هذا العرض، وعادت بعدها لتزف لحجة الدين العدوي الموافقة. فقال لها:

- **ما التدبير المناسب مع أهلك؟**
- **لن يعرف أهلي شيئاً.**
- **وكيف يكون زواجاً دون أهل؟**
- **لن يقبلوا بأي حال زواجي برجل على غير دينهم.**
- **وما الحل إذن؟ فموافقتك هذه قد لا تكفي.**
- **أليس في دينكم ما يمكِّن المرأة من الزواج دون أهلها؟**

ومضى يوم راجع فيها حجة الدين العدوي الوضع، خاصة بعد أن فتحت الآنسة تمار بتساؤلها شهيته للبحث عن مخرج. دخلت الدين على يديه، وتزوجها، ولم يعلم بذلك إلا أصحاب الغبطة، ودخل بها تلك الليلة في غرفته. وما إن انتصف الليل إلا وباب الجناح يطرق بشدة، وإذا بمجموعة من رجال الشيوخ يقتحمون المكان، يتقدمهم بعض الرجال من الضيوف. وما إن دخلوا مخدع حجة الدين العدوي، حتى صرخت الآنسة تمار وهي بجانبه، وأخذت تجهش بالبكاء.

اقتيد أصحاب الغبطة إلى مقر شرطة السفينة، وحكم على حجة الدين العدوي بالسجن لاغتصابه الآنسة تمار القاصر، كما شمل السجن زميليه لتحرشهما الجنسي بها.

وفي جلسة سرية بجناح الضيوف أثنى السيد فوميل على جهود السيدة ليفين وعلى قدرات الآنسة تمار العالية التي استحقت معها أن تكون شريكاً فاعلاً في مشروع التطوير.

(٢٢)

تسير السفينة متهادية في عرض البحر، لا تتوقف إلا عند بعض الموانى للتزود بالوقود أو ما يحتاجه أصحاب السلطان وضيوفهم. أقبل الصيف بهوائه الطلق وليله العليل، وصفت صفحة البحر من تلك الزوابع الهادرة. وأصبحت المخادع السفلية للسفينة والنادي الليلي لا تسع أصحابها.

كانت اللمسات الأخيرة على الإنشاءات السياحية على السطح قد أوشكت على الانتهاء، فتمت إقامة مجموعة من الأكواخ الصغيرة التي تفتح أبوابها على سطح الركاب، وأعلنت إذاعة السفينة ذات صباح خبر التطوير:

إيماناً من أصحاب السلطان، شيوخ القبيلة بأهمية تطوير السطح، وحرصاً منهم على تقديم الخدمات المناسبة

للركاب، فقد تقرر فتح أكواخ لبيع ما يحتاجه ركاب السطح، في شؤون حياتهم المعاشية، وكذلك فتح دار للسينما تعرض ما يسري عليهم من قصص وفنون فيها العبرة والفائدة. حفظ الله أصحاب السلطان وضيوفهم وسفينتنا من كل مكروه.

بدأت آثار التطوير على السطح تظهر على ركابه، حين أخذت دارالسينما تعرض الأفلام الترويحية، فانشغلوا بالحديث عن شجاعة القبائل الغربية، وقدراتهم الفريدة في قيادة قطعانهم في مراعي الغرب، وأصبح منظر راعي البقر مثار الإعجاب... يأسر لباب أبناء القبيلة ويعيدهم إلى بطولات لم يعد يرونها في حياتهم المعاشة، وإن كانوا يتسامرون بشجاعة أجدادهم في سالف العهد والأوان...

كما أخذت أكواخ صغيرة تبيع ما يروي العطاشى من مشروب الكوكا، وتربيهم على شطائر اللحم المقلية، والبطاطس، وبدأ كثير من الركاب يتقون الشمس باعتمار قبعات رعاة البقر حين وجدوها أكثر أناقة من عمائمهم!!

وتوالت برامج السينما تعرض فيلماً كل أسبوع، وأعلن عن عرض فيلم للمغامرات. فجاءت الملصقات مبهرة، تحفز الركاب لمشاهدة البطولات الخارقة لأولئك الرجال الذين يملكون القدرة

على السيطرة على كل شيء بدءاً من قطعانهم، وحتى الرجال الآخرين.

وخرج الذين شاهدوا الفيلم يطرون القوة التي يتمتع بها البطل، ويتغنون بفهمه وسرعة بديهته، وقدرته على السيطرة على كل أمر يقتحمه..!!

وأعلن عن عرض جزئه الثاني فكانت الرغبة في مشاهدته أشد، إذا ألهبت قوته مشاعر من رآه وكانت دافعاً أقوى لمن لم يره على عدم ترك الفرصة؛ لهذا أخذ مُصلِح كيس البطاطس المقلية الساخنة من المحل المجاور للمدخل، وانتظر دوره في الدخول، في حين أحضر مشعان زجاجات الكوكا الباردة.

بدأت أحداث الفلم مؤكدة للإعجاب السابق لمصلح بقوة البطل وتدريبه الفائق... شاب مفتول الذراعين تظهر ملامح القوة في عضلاته البارزة من خلال صدرية لا تغطي إلا أجزاء صغيرة من جسمه... يقبل الانضمام إلى إحدى فرق المهام في الجيش الغربي في إحدى غزواته على قبائل الشرق. التفت مشعان إلى مصلح قائلاً:

- **يا له من رجل قوي مفتول الساعدين غير مترهل الجسم.**

- **رد بحماس يؤكد إعجابه:**

- ألم أقل لك، نموذج فذ من الرجال.

- هل تراهم جميعاً بهذه القوة..؟!

- هذا هو نموذج ذلك الجيش.. قوة وتدريب عاليان.

واستمر العرض وتلاحقت الأنفاس..

- انظر.. انظر.. ماذا يحمل؟!

- لا أراه يحمل شيئاً يذكر!

- نعم، ولكن ذلك القليل يسخره بذكاء وفطنة.

- ما أسرع حركته!

- سوف ترى العجب.. انظر..

- تكاد هذه الفتاة أن تكون مثله في الشجاعة

- بل هي تجاريه، ويبدو أنها معجبة ببطولته..!

- هذا ما يظهر، إذ هي ساعده الأيمن في كل حركاته، بل وتهيئ له الظروف المناسبة لتحركه.

- انظر.. انظر..

ومرت دقائق من الصمت لتنجلي عن تحرير البطل لأحد الرجال من المعتقل.

- ليته يوفق فهو بطل يستحق النصر..

- سوف ينجح..!

- لقد تخطى الكثير..

لكنه يقع في الأسر مع زميله الذي خلصه، فيعاود مصلح وصاحبه تقويم الوضع..

- ما أشد قسوة أبناء تلك القبيلة الشرقية!

- ألا ترى همجيتهم؟!!

- يعاملون خصومهم بلا إنسانية!

- انظر إلى البطل في هذا المعتقل النتن..!

- ما أقبحهم، لقد وضعوه في مخلفات الصرف الصحي!!

- لشد ما أكره تلك القبيلة الشرقية!

- ألا ترى تهذيب جنود القبيلة الغربية.. فعلى الرغم مما يجري بينهم، إلا أنهم لا يصلون إلى هذا الحد المزري في المعاملة.

ثم لحظات من مواقف التعذيب التي جعلت مصلح وصاحبه يكادان لا يلتقطان أنفاسهما:

- انظر ماذا يفعل هذا البطل...

ثم بصيغة التشجيع:

- **حطمهم، دمرهم...**

- **انظر إليه ينطلق كالسهم مدمراً أولئك الأوغاد...**

- **يا لك من شجاع..**

- **هذه هي البطولة وإلا فلا..**

وتمضي أحداث الفيلم ليظهر البطل وقد قفز إلى المروحية، وأمسك بخناق حامل البندقية. خفض مشعان رأسه في انتظار أن تحسم المعركة. سأله مصلح:

- **ما بالك؟**

- **لا أحتمل أن يحصل شيء لهذا البطل..!!**

قهقه مصلح وقال:

- **وهل ترى ما يحدث الآن حقيقة..؟**

- **كأنه حقيقة..**

- **كأنه حقيقة، لكنه الآن مجرد صور..**

- **أعرف ذلك، لكن لا أحب رؤية هذا لمن أحب..!**

وتوالت المشاهد بعد أن خلص البطل زملاءه من معتقل القبيلة الشرقية. وتنفس مشعان الصعداء فقال له مصلح:

- **ألم يعجبك؟**

obeikandl.com

- بلى، لكن خفت على هذا البطل أن يصيبه مكروه..!

- هذا بطل درب على أعلى المهارات..

- ومع ذلك فالإنسان قد يهزم مهما كانت شجاعته.

- طب نفساً، فقد انتصر وعاد إلى بلاده.

قهقه الاثنان وعادا يكملان أكل البطاطس المقلية، بعد أن عادا لمشاركة ركاب الغالية مناقشة شجاعة البطل الفذة..!

قال أحدهم:

- حزنت على تلك الفتاة الشجاعة..

وقال آخر:

- إنها فتاة بألف رجل.

- ولكنها قتلت من بني جنسها.

- تستحق ما جاءها.

انبرى آخر في غضب:

- ولماذا، ألشجاعتها النادرة؟

- أليست خائنة؟!

- هل هذه خيانة؟ كلنا نحب الشجاعة.

- هذا لا يعبر عن الحقيقة.

obeikandl.com

- **ولكن ألم يقتلوا أباها من قبل؟**

- **وألم يكن أبوها خائناً مثلها..؟**

- **لا أدري، لم يشر الفيلم إلى شيء من ذلك.**

- **بل أشار، لكنك معجب، وعين الرضا عن كل عيب كليلة..!!**

وحاول ركاب السطح نسيان همومهم الشخصية، بالتسامر واسترجاع أحداث الفيلم، وما جرى للبطل فيه عند القبيلة الشرقية.

قال جلوي:

- **هذا هو الجندي، وهذه هي العسكرية..**

رد عليه محمود مؤيداً:

- **هذه هي مؤسسة القبيلة الغربية العسكرية..!**

- **مستوى عال من التدريب..**

- **وتقنيات عالية، تغني عن كثير من آلات الحرب الضخمة!**

- **ألم تر تلك السهام الصغيرة التي تفعل فعل المدافع في الأعداء..**

- **أو تلك القنابل المدمرة رغم صغرها..**

وشاركهم آخر في الحديث:

obeikandl.com

- **ومراكز القيادة المتقدمة التي جهزت بكل شيء من تقنيات الحاسب إلى مشروب الكوكا البارد.....**

عاد جلوي إلى القول:

- **هذه هي عظمة الأمم..!!**

فرد عليه محمود:

- **هنيئاً لهم بما هم فيه..**

ثم حلق خياله بعيداً بعيداً... ما تراك فاعلة يا عائشة الآن... لقد اشتقت إليك، ولا يغنيني عنك رؤية ذلك البطل رغم عظمته.

وفي ركن قصي تحلقت مجموعة أصغر تستكنه شخصية بطل الفيلم، وتبحث عن مضامين أخرى لهذه البطولات..

شدد علي على أن الفيلم لا يحكي بطولة لشخص بل يحكي ما هو أكثر.. فقال سويلم:

- **إنه يؤكد في نفوس مشاهديه تلك البطولة الفذة لجنود تلك القبيلة. إنه لا يعدو أن يكون فيلماً دعائياً لتلك المؤسسة العسكرية....**

قام مصلح غاضباً، وهو يردد على مسمع من بجانبه:

- **أناس معقدون، تحاصرهم فكرة اتهام الآخر دائماً...**

ثم مضى بعيداً عن حلقة النقاش.

قال آخر:

- ألم نر هزيمة تلك القبيلة في الجزء الأول منه؟

- رأينا هزيمة سياسية، لكن لم نر هزيمة عسكرية لتلك القبيلة، بل بقي الجندي قوياً عزيزاً.

- أتقصد أن هذه الأفلام لا تبين عن الحقيقة فحسب؟

- هذا ما أراه، والأحداث في الفيلم تؤكد ذلك....

واستدرك علي قائلاً:

- وتؤكد أموراً أخرى..

- وماذا تؤكد أيضاً؟

أجاب علي بسرعة:

- ألم تر تلك التكنلوجيا الإلكترونية المتقدمة في معسكر تلك القبيلة، وتلك الشجاعة للبطل حتى إنه يجابه بمفرده مئات الجنود من تلك القبيلة الشرقية. فهو يصطادهم كما يصطاد العصافير. ويقاوم ضباطهم رغم التعذيب والقسوة...!

- هذا هو ما أثار إعجابي، فلولا بطولة ذلك الرجل لما كان للفيلم قيمة لدى مشاهديه.

- وهي في الوقت نفسه الرسالة التي يريد الفيلم أن يوصلها لمشاهديه.

- وأردف سويلم قائلاً:

- لكنكم لم تروا الجانب الآخر من الرسالة..

- رد علي:

- هناك أكثر من رسالة..!؟

فأجاب سويلم:

- أعني أنه أظهر القوة العسكرية الشرقية ساذجة، وإلا فكيف تطارد أرتال من الجنود شخصاً واحداً، لكنه يتفوق عليها ويدمرها دون آي آلة عسكرية.

وتابع علي القول:

- لقد حمل الفيلم رسائل عدة، لعل أبرزها في رأيي تشويه صورة أبناء تلك القبيلة الشرقية!

رد آخر:

- قلل من شأن العسكرية الشرقية فحسب...

قطع علي حديثه موضحاً قوله:

- لقد جعل أبناء تلك القبيلة في الفيلم خونة، ففتاة تلك القبيلة، ومن قبل والدها عملا لصالح استخبارات القبيلة الغربية، ثم تلك المعاملة السيئة للأسرى الغربيين من قبل أبناء القبيلة الشرقية....

obeikandl.com

قطع أحدهم الحديث:

- **كلما ذكرت تلك الفئران ومياه المجاري اقشعر جسدي..!**

ثم عاد علي إلى الحديث:

- **هل هذه جاءت عفوية أم أن وراء الأمر ما وراءه؟!**

تحدث آخر قائلاً:

- **لقد رأيت أمراً آخر لعل له مدلولاً أكبر في رأيي!!**

قال علي:

- **أي أمر تعني؟**

- **أذكركم بما قاله البطل للفتاة بعد أن رأى في عنقها ذلك الطوق الذي يحمل الخرزة الزرقاء... لقد قال لها: ما هذه؟ فتجيب: هذه تجلب لي الحظ الحسن. فتسأله بدورها: وأنت ما الذي يجلب لك الحظ الحسن؟ فيخرج البطل خنجره الصلب ويجيبها: هذا...**

ألا ترون أن هذا المشهد يحمل أكثر من هذا المدلول العابر؟!

أجاب أحدهم:

- **هل تعني أن ذلك المشهد يشير إلى اعتماد المرأة الشرقية على الحظ، في حين اعتمد بطل الفيلم على القوة...؟**

أجاب علي:

obeikandl.com

- **بل ويدل على ما هو أكثر من هذا...!**

فقال سويلم:

- **لعله يعني أن الخرزة الزرقاء تعد من الخرافات الشائعة في تلك القبائل...!**

- **بل إنها تعني أن قبائل الشرق تؤمن بالمغيبات، دون الاعتماد الكامل على القوة المادية التي تحمي الإنسان...!!**

أكد سويلم استنتاج صاحبه قائلاً:

- **إن نهاية الفيلم تؤكد ما تقول، فإن الفتاة الشرقية تقتل في حين أن البطل ينتصر، وهو ما يعني أن الخرزة الزرقاء لم تنفع الفتاة ولم تجلب لها الحظ المزعوم، في حين أن القوة أعادت البطل منتصراً إلى قبيلته مع الرهائن، فكأن خنجره قد جلب له الحظ الحسن!**

فعاد علي إلى القول:

- **إن هذا يعني أن المعتقدات التي تؤمن بها قبائل الشرق لا قيمة لها أمام القوة المادية.**

علق آخر من أقصى الحلقة:

- **كل هذا أرادوه، وأنا أصفق لشجاعة البطل!**

ضحك الجميع.. لكنهم انفضوا إلى زواياهم....!!!

(٢٣)

انتقل النادي الليلي إلى المنشآت الجديدة على السطح، وبدأت الحفلات الموسيقية الصاخبة تمتد إلى الهزيع الأخير من الليل. ولم يعد بإمكان ركاب السطح النوم على صخب الموسيقا، كما لم يستطيعوا النوم في وهج الشمس أثناء النهار.

أحس ركاب السطح أنهم يعيشون في دوامة لا تنتهي من الضيق والضنك، وأصبحت النفوس تشتكي من الوضع قبل الألسن... وزادت وطأة مبيعات أكواخ السطح على جيوبهم الخاوية..! وعم الهمس بينهم حتى أصبح صوت الشكوى مسموعاً، تلوكه الألسن..

- **إننا لا نستطيع النوم من هذا الصخب..**
- **كنا نتحسر في الماضي على عدم قدرتنا على ضبط صلاتنا مع هذا الإزعاج، واليوم لم نعد نستطيع ضبط حياتنا كلها...!**
- **حتى الطعام قل قدره إلى مستويات متدنية لم نعهدها.**
- **لولا هذه الأكواخ بما تحويه من أطعمه خفيفة لما استطعنا أن نقيم أودنا على ما يقدم.**

وأعلن في الإذاعة البيان التالي:

حرصاً من أصحاب السلطان، الشيوخ على راحة أبناء القبيلة، وحيث تبين أن الطعام الذي يقدم جماعياً يقيد من حرية الأشخاص

في اختيار الطعام الملائم، وهو ما لا يرضاه قادة هذه القبيلة الكرام، فقد رئي تقديم خمسة دراهم لكل راكب، على أن يختار الطعام الملائم له من أكواخ الطعام التي تكرم أصحاب السلطان بإنشائها على السطح.. وإن إدارة الغالية لتأمل أن تكون هذه الإصلاحات محققة لمصلحة الركاب وملبية لرغباتهم. والله الموفق..

عم الهرج أنحاء السطح ما بين معجب بالقرار وشاجب..

- **قرار غير مدروس كالعادة..**

- **لا يحقق أي فائدة لنا..**

- **هل ما يقدم في هذه الأكشاك هو الغذاء الذي يعيش عليه الإنسان؟!**

تقدم مصلح وهو يصلح من شأن بنطاله الجينز الذي اشتراه للتو، فنفث دخان سجارته في الهواء وقال:

- **لعل هذا القرار هو أفضل قرار اتخذ في الغالية...**

- **رد عليه آخر بشدة:**

- **وأي فضل تراه؟!**

- **لقد مللنا من الطعام الذي يقدم لنا.**

- **وهل الحل في طعام الوجبات السريعة؟!**

obeikandl.com

- وما العيب في طعام الوجبات السريعة؟ همبرغر، وبطاطس مقلية، وفوقها كولا مثلجة.. ألا ترى أنك في نعيم؟

رد آخر:

- هل نستطيع أن نشتري كل هذا بخمسة دراهم؟!

- هذا شأن يخصك، إذا لم تكن تحمل المال، فلماذا قبلت بالسفر؟!

- قبلنا بالسفر؛ لأن الغالية سفينتنا... ملكنا، لكننا لا نقبل الموت جوعاً على ظهرها...

رد آخر بسخرية مرة:

- عود نفسك على الحمية...!

أردف آخر:

- ألا تعرف أن المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء..؟!

أوقفهم سويلم بإشارة من يده وقال:

- دعوكم من المزاح، وانظروا إلى الأمر بشيء من الواقعية والجدية..

- إن ما جعلنا نطرق موضوع الطعام، هو هذه الجدية والواقعية التي تطلبها، ولكن من يعجبهم الهامبورغر والكوكا أعماهم عن الوعي بالمشكلة..

obeikandl.com

- **إن مشكلة الطعام لها أبعاد متعددة...**

قال آخر بحنق شديد:

- **مشكلة الطعام أن الدراهم الخمسة لا تكفي لشراء ما يسد الجوع..**

وقال آخر:

- **إن هذا الطعام لا يروق لنا..**

وآخر قال:

- **هذا طعام نتسلى به، لكنه ليس غذاء نقتات عليه طوال الرحلة.**

قال سويلم:

- **لعل ما قاله الإخوان يحدد مشكلة الطعام على ظهر السفينة.**

قال آخر متهكماً:

- **أتيت بالذئب من ذيله..!**

أكمل سويلم حديثه، وكأنه لم يسمع ما قاله الآخر:

- **يمكننا أن نقدم عريضة بمطالبنا إلى الشيوخ..**

أجاب جلوي:

obeikandl.com

- **وهل نسيت إخواننا الأربعة الذين أخرست ألسنتهم..!**

ثم علق علي بهمس:

- **أين زكريا، يرحمه الله؟!**

استأذن أحدهم للحديث، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

- **إن شغلنا بقضية الجوع والشبع، فإننا لن نشبع أبداً، ولكن يجب علينا أن نروض أنفسنا على مثل هذه الأمور، وما قد يجد، وأن نحمد الله على ما أعطى، وأن نحمده على ما أخذ... ويمكننا بشيء من القناعة وحسن التدبير أن نشتري طعامنا جملة، وأن نجتمع عليه بحيث تشترك كل مجموعة فيما بينها، فإن هذا مما ينزل البركة، ويعين على تحمل النقص.**

قال آخر من أقصى المجموعة:

- **يصبح الطعام نهباً بيننا..**

وأيده آخر:

- **سأزداد جوعاً..**

وآخر:

- **إن البركة في كثرة الطعام لا في الاحتيال عليه..!**

ومضى الجميع كل يسلي نفسه بهمومه وشجونه.

وفي الملهى الصيفي بدأ صوت نسائي عذب يغني على أنغام الموسيقا، في حين أخذ ركاب السطح يعالجون توزيع شطائر الهمبرغر والبطاطس بينهم، ويتأنون في الأكل علَّ البركة تنزل في القليل فيسد رمقهم. لكن الأطباق نظفت مما بها، ومازال الجوع يحرك البطون. قذف أحدهم بطبقه غاضباً، فتبعه الآخر، وتوالى قذف الأطباق الورقية إلى الجهة الصاخبة من السطح، حتى توقفت الموسيقا، وفتحت الأبواب من كل جانب. وهرع منها رجال مدججون بالهراوي والأسلحة الخفيفة!

نام ركاب السطح تلك الليلة على الأنين والهلع، بعد أن استضيف منهم أكثر من عشرين شخصاً، وجرح منهم العشرات، وأصيب أغلبهم بكدمات..

(٢٤)

عبر السيد فوميل إبراهام عن غضبه بطلب عاجل لاجتماع مجلس أصحاب السلطان. ولم يكن في وسعهم إلا الركون إلى طلبه. ابتدر السيد فوميل حديثه معهم بلهجة شديدة تصل إلى حد الوقاحة... فلم يحييهم كالعادة، بل شرع في الحديث بلهجة مهدداً:

- **ما حصل من ركاب السطح عمل جنائي لا بد من المعاقبة عليه بشدة. وما جرى من تساهل سابق من قبلكم لن يقبل به مطلقاً، فمصالحنا مهددة بالخطر، ونحن لا نساوم على ذلك.!!**

رد الشيخ أبو المكارم:

- **نحن لا نطالب بالمساومة على مصالحكم، ورجالنا في الغالية قد قاموا باللازم مع الركاب، وقد سجن منهم اثنان وعشرون شخصاً...**

وأكد الشيخ أبو سعد قول الشيخ أبي المكارم:

- **ولم ير منا تساهل قط تجاه ركاب السطح...!**

أجاب فوميل مهدداً بلهجة الواثق:

- **لو لم يكن هناك تساهل لما حصل ما حصل..**

فرد الشيخ أبو سعد:

- **سوف نحقق معهم لنعرف الأسباب الحقيقية لتصرفهم..**

فقال فوميل بلهجة ساخرة:

- **ما زلت تريد معرفة الأسباب؟!**

- **وماذا تريد أن نعمل؟**

- **لابد من عقاب حاسم وصارم..**

- **قبل التحقيق؟**

- **سوف نقوم نحن بالأمر...!**

قال الشيخ أبو أيمن باستغراب:

obeikandl.com

- **أليس في هذا انتهاك لكرامة الغالية وأهلها، واعتداء على حقنا فيها...؟**

- **إذا لم تستطيعوا التصدي للموضوع، فلن نتسامح من أجل كرامة الغالية..**

- **لقد بذل رجالنا ما في وسعهم... وسوف نبذل المزيد..!**

فقال فوميل بتعال:

- **إن رجالكم لا يعلمون شيئاً..!**

فقال الشيخ أبو أيمن:

- **أفصح يا سيد فوميل.. فلعلك تعني أمراً لا نعرفه..**

- **لقد وصل إلى علمنا أن أحد ركاب السطح قد حاول الحصول على هراوة..!**

قال الشيخ أبو الفوارس:

- **إن ملك أحدهم هراوة فذلك أمر خطير!**

أجاب السيد فوميل بابتسامة صفراء:

- **ألم أقل إن رجالكم لا يعلمون بشيء، ولهذا سوف نتدبر الأمر من الآن..**

وعلى أثر هذا الاجتماع بدأت المداهمات الليلية تكثر، وبدأت حلقات التحقيق مع مشبوهين من ركاب السطح تزداد، فما يعود

obeikandl.com

راكب إلا ويؤخذ اثنان، حتى أصاب الرعب الجميع، فلم يعد أحد يأمن في نومه من أن يؤخذ على حين غرة، واشتدت المعاناة عليهم:

- ما أشد ما نحن فيه من ضنك!!
- لا ترفع صوتك فالجدران لها عيون وآذان..
- لم أستطع النوم البارحة..
- لم أنم إلا بعد صلاة الفجر..
- لو حدث مكروه - لا قدر الله - فانتبه لأغراضي الشخصية، فقد أعود فأحتاج إليها، وقد لا أعود فهي لك...!
- تفاءل خيراً..!
- الواقع يكذب أي فأل.
- أخذ البارحة ذلك الشخص الهادئ الذي لا يتكلم أبداً...!
- وهل ما يؤخذ إلا المتكلم؟!
- ظننت أنهم يبحثون عن أصحاب الأصوات فحسب.
- لقد أخذوا إمام الصلاة قبل أسبوع، وأنت تعرف من هو إمام الصلاة..!
- ما ترك المسكين مبرراً لهذه الأفعال إلا قدمها بعد كل صلاة..!

obeikandl.com

- ومع ذلك ما نفعه ولاؤه..!

- لعلها شبهة..

- كلنا على هذه الحال، ولكن ما الفائدة إذا عذبنا وابتلينا في أنفسنا..

- أصمت، فهذا شخص قادم يقترب منا.....

ولم يعد أحد من الركاب يتأكد من أنه سوف يرى صاحبه في الغد، إذ إن المداهمات المفاجئة كانت تتم في الهزيع الأخير من الليل فتروع الجميع، وتأخذ بعضاً منهم..

كانت التهمة الموجهة للمقبوض عليهم تتراوح ما بين القذف بطبق على الجانب الآخر من السطح، أو وجود نوايا مبيتة للحصول على هراوة أو سكين. ويمكث العائدون أياماً وهم ساهمون لا يتحدثون مع غيرهم، وإن كانت تجري بينهم الهمسات الخافتة، كلما اجتمع أحدهم مع الآخر على انفراد:

- يظهر على رقبتك آثار حمراء فهل عذبوك عليها؟

- ألم ينلك نصيب من ذلك؟

-.....؟!

- لكن لم أر ذلك على وجهك...!

- تعددت الأسباب والموت واحد! تعددت أنواع العذاب، وآلامه واحدة سواءً أكان ذلك على الوجه أو الرقبة أو.....

- هل جرى ذلك أيضاً..؟!

- دعها مستورة..!!

- الحمد لله على أن ملابسنا تستر فضائحهم...

- ياليتها لم تكن كذلك...

- سوف يستمرون في غيهم، ونعود نحن بالفضيحة..

- على الأقل ليعرف من يسوق لهم الحجج أنهم أبشع مما يمكن تخيله عنهم...

- يدركون ما يحدث، وإن لم يروه..

- ليس من رأى كمن سمع..

- لقد رأوا....فإن حمدي قد رئي وهو يخلع ملابسه، وتحدث الآخرون بما رأوا....!!

- ومع ذلك سيبقون سادرين في غيهم..

- استسلموا للضيوف وجعلوا بأسهم شديداً علينا....!

obeikandl.com

(٢٥)

أخذت الإعلانات الإذاعية تحذر من اجتماع أكثر من ثلاثة أشخاص في مكان واحد، أو الاجتماع في زوايا بعيدة عن الأعين. وانصاع الركاب لهذه التوجيهات الجديدة على أمل أن تخفف وطأة الاعتقالات وزوار آخر الليل، لكن الأمر بقي على حاله، فلا يسلم السطح من بعض الزيارات الليلية كل فترة. وفي الأيام التالية توقفت الإذاعة عن بث أذان الصلوات معللة هذه التوجه بأن رفع الأذان في مكبرات الصوت فيه إزعاج للمرضى والنائمين، ووجه في الوقت نفسه إلى الاكتفاء بالأذان في موقع الصلاة مباشرة. وبدأت البرامج تأخذ طابعاً جديداً يختلف عما عهد، إذ أصبح البث في الغالب بلغة الضيوف، في حين اقتصر على لغة القبيلة في بث التحذيرات والتوجيهات، كما أصبحت موسيقا الضيوف تصدح على ظهر الغالية صباح مساء، واستبعد أي نوع من تراث القبيلة الشعري والموسيقي. واتضح للجميع أن الإذاعة وما هو أكبر منها لم يعد ملكاً للقبيلة، خاصة بعد أن صارت التوجيهات تصدر باسم الضيوف! تململ الركاب من الوضع، لكن كان زوار الفجر لا يتركون فرصة لالتقاط الأنفاس والتفكير في المستقبل. فشغلوا بحاضرهم وهمومهم الخاصة عن التفكير في أي شيء آخر، خاصة بعد أن أصبحت الغيبة في أقبية الغالية مكلفة جسدياً ونفسياً.

ولم يرض الضيوف عن هذه الإجراءات الأمنية، فاتجه السيد فوميل إلى الشيخ أبي الفوارس في جناحه الخاصة، وحدثه عن الخطر الذي يتهدد الأمن من ركاب السطح وقال:

- **إن ركاب السطح يزدادون عنفاً...!**

فقال الشيخ أبو الفوارس:

- **ونحن نزداد شراسة.**

- **هل ترى أن ما يفعله رجالكم يكفي؟**

- **لم يعد أحد يهنأ على السطح..**

فأجاب السيد فوميل بغطرسة:

- **ولم نعد نهنأ على هذه السفينة..**

- **ما الذي أصابكم منهم؟**

- **هل ننتظر حتى يصيبنا شيء؟!**

- **التحقيقات تجري معهم على قدم وساق، حتى شملت أغلب الركاب..!**

- **وماذا تبحث عنه هذه التحقيقات؟**

- **حاولنا أن نعرف من الذي قادهم إلى فعلتهم..!**

قال السيد فوميل بسخرية:

obeikandl.com

- وهل وصلتم إلى شيء؟!

- كل التحقيقات تؤكد على أن الأمر جاء عشوائياً دون تدبير مسبق..

- وكيف حصل إذن؟

- سخط الركاب على غلاء أسعار الطعام التي تقدم في أكواخ السطح..

- وهل يؤدي السخط على أسعار الطعام إلى رمي الأطباق..؟

- بل إنه الجوع...

- ولماذا لا يشترون ما يكفيهم؟

- لا تكفي الدراهم الخمسة للشراء من محالكم الغالية؟!

- ولماذا لا تزيدون استحقاقاتهم؟!

- هذا فيه خراب على ما بنا من خراب!!

- أتعني أن لا علاج لديك... أقصد لديكم؟

- نبذل ما في وسعنا، وعليكم التعاون معنا والقبول بجهودنا..

قال السيد فوميل بلغة هادئة، لكنها تحمل الكثير من التهديد:

- سوف نقبل.. سوف نقبل...!!

وسكت برهة، ثم أردف قائلاً بابتسامة صفراء:

- **الآنسة تمار تسأل عنك كثيراً يا صاحب السلطان..**

ابتسم الشيخ أبو الفوارس ابتسامة متكلفة، وعلا وجهه الشحوب، لكنه قال:

- **وكأنها ليست موجودة معنا على ظهر الغالية.**

- **هي غير راضية عن الوضع على السفينة...**

- **وما علاقتها بالوضع؟**

- **ألا يهمها الأمن على السفينة؟ أليس أمنها من أمن السفينة؟**

- **قل لها لا تخش شيئاً، ولتكن بعيداً كما كانت...!**

ابتسم السيد فوميل، ثم قال:

- **آه نسيت أن أسألك عن ما بينك وبينها؟**

- **ليس هناك شيء يذكر، معرفة عابرة وانتهت..**

- **لقد ألمحت بغير ذلك..!!**

- **ماذا ألمحت لك؟**

- **لم تذكر شيئاً بالتحديد، ووعدتني بأن أعرف المزيد في الوقت المناسب.**

obeikandl.com

امتعض الشيخ أبو الفوارس من قوله، لكنه لم يترك الأمر يمر فقال:

- **هل لديها مشروع فضيحة أخرى؟**

- **لا، لا ياصاحب السلطان، ولكن حديثي معك حديث الصديق لصديقه، إلا إذا كنت ترفض هذه الصداقة.**

ثم سكت هنيهة، وأردف قائلاً:

- **لنترك هذه الأمور فليس هذا وقت الحديث فيه! ولكن أما زلت راضياً عن الإجراءات التي يتبعها رجالكم..؟**

أدرك الشيخ أبو الفوارس الرسالة التي ضمنها السيد فوميل حديثه، فحاول ألا يقطع حبل الود معه في هذه المرحلة الحرجة فقال:

- **سوف أبحث الأمر مع إخواني أصحاب السلطان، وأعدك أن يكون ذلك سريعاً، وأن تكون الإجراءات أكثر حسماً..**

- **آمل ذلك، وأن يكون سريعاً..**

- **سوف ترى ما يرضيكم..**

(٢٦)

بعد صلاة الفجر فوجئ الجميع بدخان كثيف يصعد من الجانب الآخر، انطلقت فرق الطوارئ في الغالية، وتمت معالجة الأمر بعد فترة وجيزة. عاد ركاب السطح إلى النوم، لكن لم تشرق الشمس عليهم.

زج بأغلبهم في الأقبية، ووجهت لهم تهم تتضمن قيامهم بإشعال حريق بهدف تدمير الغالية. واجتمع السيد فوميل مع الشيوخ، فابتدر الحديث قائلاً:

- **هل ترون الأمن في هذه السفينة مطمئناً يا أصحاب السلطان؟**

أجاب الشيخ أبو فخري:

- **وماذا تريد أن نفعل؟ إننا لم نترك أسلوباً في التحقيق إلا فعلناه...!**

ثم تحدث أبو الفوارس قائلاً:

- **لقد اتفقت مع أصحاب السلطان على أن يكون التحقيق أكثر صرامة وقسوة، لعلنا نصل إلى شيء.**

فأجاب السيد فوميل متجهماً:

- هذا هو الوعد الذي وعدتني به فيما مضى...!

- ولقد وعدتك ووفيت، ولكننا لم نصل إلى شيء، فالكل ليس لديه أي علم بما يحصل..!!

ثم أخذ زمام القول الشيخ أبو سعد:

- لقد بثثنا عيوننا في أرجاء السطح، فلم نسمع أي أثر لذكر هذه العملية ومن قام بها.

فقال السيد فوميل:

- أما نحن فقد سمعنا..

- ماذا تقصد؟ إذا كنتم تعرفون، فلماذا لم تبلغونا؟

تلكأ السيد فوميل قليلاً، ثم قال:

- أقصد أن ضعف الأمن عامة مؤذن بمثل هذه الأعمال..

بادر الشيخ أبو المكارم بالرد:

- وماذا ترى العمل ياسيد فوميل؟ نحن آخذون بأي رأي يحقق الأمن على الغالية.

ابتسم السيد فوميل، ثم قال:

- هل هذا رأيكم جميعاً؟

أجاب أصحاب السلطان بلسان واحد:

obeikandl.com

- **إن ما يقول به الشيخ أبو المكارم هو رأي القبيلة كلها، وليس رأينا فحسب!**

اعتدل السيد فوميل في جلسته، ابتسم ابتسامة الواثق بالنصر في معركته، ثم قال:

- **الرأي الوحيد الذي لا خيار غيره أن تسلم المهام الأمنية في السفينة لرجالي وتحت قيادتي..!!**

- **ألا ترى أن هذا تنازل كبير وخطير عن سيادة القبيلة في الغالية..؟!**

- **لا أرى ذلك!!**

- **ستبقى شيخاً يا صاحب السلطان، ولن تنقص سيادتك (قال ذلك الشيخ أبو سعد وهو يضحك ساخراً).**

قال الشيخ أبو الفوارس:

- **ولكن كيف نواجه أبناء القبيلة..؟!**

التفت إليه الشيخ أبو المكارم، وقال هو يتبسم:

- **مثلما نواجه بقية الفضائح!!**

عاد الشيخ أبو الفوارس إلى الصمت، لكن الشيخ أبا أيمن قال:

- **وماذا نفعل برجالنا، إذا لم يكن لنا شأن بالأمن؟**

obeikandl.com

عاد السيد فوميل إلى الحديث بتبسط شديد:

- **الأمر هين، فرجالكم سينضوون تحت قيادة رجال الأمن لدي، بحيث يتم تطوير قدراتهم، والرفع من كفاءتهم.**

هز الشيخ أبو الفوارس رأسه، وقال:

- **الرأي ما ترون!!**

وبعد أن أتم السيد فوميل مهمته خرج، وبقي أصحاب السلطان على اجتماعهم. قال الشيخ أبو الفوارس:

- **ماذا ترون مع الأوضاع الحالية؟**

رد عليه الشيخ أبوسعد، وقد رفع صوته بما يشبه الحزم في الأمر:

- **الأمر سيئ، ولا بد من معالجة جذرية تؤدب أولئك الذين تنكروا على النعمة..**

- **أي عقاب يمكن أن يتم، وأنتم تعرفون قدر التنكيل الذي يصيبهم؟**

- **هؤلاء لا يسوسهم إلا الحزم والشدة، وإني لا ألوم الضيوف على طلبهم، فلقد كاد الحريق أن يلتهم جزءاً كبيراً من السطح...**

- **إذن أنتم ترون أن طلبهم مشروع، وقبولنا به مقبول عند أبناء القبيلة...**

- **لا بد أن يكون مقبولاً، ثم ما دور أصحاب الغبطة؟! (ثم متهكماً) أو قد اكتفوا بإثارة الفضائح..!!**

- **إنهم مستمرون في وعظ ركاب السطح وتذكيرهم بما يجب عليهم نحونا..ولكن الأحداث تشير إلى أن الأمور تتطور على غير ما نريد...!**

- **ومع ذلك فعليهم بالمزيد، ثم هل نددوا بما حدث...؟**

قال الشيخ أبو أيمن:

- **لا أحسبهم فعلوا شيئاً من ذلك...**

- **لا بد أن يشجبوا ما حصل، وأن يبرروا لركاب السطح الإجراءات المتخذة، ويؤيدوها ويطالبوا بالالتزام بها، هذا هو ما يلزمهم عمله الآن.....! أما كفاهم مداراتنا لفضائحهم وشفاعتنا كيما تخفف عقوباتهم.**

وهكذا انتهى الاجتماع بعد أن أخذ الشيوخ بمقولة الشيخ أبي سعد، بوصفها توصية يجب أن يأخذ بها أصحاب الغبطة.

على أثر ذلك اجتمع أصحاب الغبطة لدراسة الوضع، وأصدروا بيانهم المبين لوجهة النظر الشرعية فيما يرتكب من جرائم وفي من يقوم بها أو يؤيدها:

obeikandl.com

الحمد لله وبعد، إن أصحاب الغبطة قد اجتمعوا اليوم لاستعراض ما جرى من أحداث على سطح الغالية، وإن مثل هذه الأمور الخطيرة هي من أعمال التخريب التي تزعزع الأمن وتدمر الممتلكات والأنفس، وتعرض مصالح القبيلة لأعظم الأخطار. ونظراً لما يجب علينا من بيان لها وكف لشرورها، والتحذير منها، وتحريم السكوت عن الإبلاغ عن كل خطر يبيت ضد أمن الغالية؛ فإننا إبراء للذمة ونصحاً لأبناء القبيلة، وإشفاقاً على أبناء الدين من أن يكونوا أداة إفساد وتخريب اتباعاً لدعاة الضلالة والفتنة والفرقة، نود أن نبين لكم أن القيام بأعمال التخريب والإفساد عمل إجرامي خطير مقتض للعقوبات الشرعية الزاجرة الرادعة؛ عملاً بنصوص الشريعة ومقتضيات حفظ سلطانها، وتحريم الخروج على من تولى أمر الأمة فيها. ومن زعم أن هذه التخريبات وما يراد من تحريق جهاد، فذلك ضال جاهل. ومما سبق فإنه قد ظهر وعلم أن ما قام به أولئك، ومن وراؤهم، إنما هو من الإفساد والتخريب والضلال المبين.

وانطلاقاً من هذا فإننا نؤيد ما يقوم به أصحاب السلطان الشيوخ أعزهم الله بالدين من تتبع تلك الفئة والكشف عنهم؛ وقاية للغالية وركابها من شرهم ودرءاً للفتنة وحماية للبيضة.

وعلى هذا نحذر من التستر على هؤلاء؛ لأن ذلك من كبائر الذنوب، ونستنكر ما يصدر من آراء تؤيدهم ما أنزل الله بها من سلطان، ونحذر من تصدر عنهم هذه الآراء؛ لأنهم سيكونون عرضة للمحاكمة. وعلى أصحاب السلطان الشيوخ ومن يوكلون له أمر الأمن في الغالية تتبع من تسول له نفسه فعل مثل هذه الأمور أو تأييدها.

لكل ما تقدم فإننا نحذر من دعاة الضلالة والفتنة الذين ظهروا على ظهر الغالية، وقلبوا على المؤمنين أمرهم وحرضوا على معصية ولاة أمرهم أو الخروج عليهم، وذلك من أعظم المحرمات. ولهذا نكرر وجوب الالتفاف حول أصحاب السلطان الشيوخ، ويزداد هذا الأمر تأكداً في مثل هذه الأوقات، أوقات الفتن، وقى الله الغالية وأهلها من كل مكروه، وكبت أعداءهم، ورد كيدهم في نحورهم..!! الموقعون: صاحب الغبطة حجة الدين العدوي. صاحب الغبطة حجة الدين البهلوي، صاحب الغبطة حجة الدين الطاهر، وتغيب عن الاجتماع لمرضه: صاحب الغبطة حجة الدين الناجي.

(٢٧)

على أثر الاتفاقية الجديدة، استلم الضيوف المهمات الأمنية كافة، وأصبحت المداهمة أقل عدداً، وأدق هدفاً. وأخذ جنودهم يوزعون النشرات على ركاب السطح متضمنة رسالتهم المشروعة في حماية الحرية التي حرم منها ركاب السطح. كانت هذه النشرات تدعو إلى وجوب الترحيب بالضيوف، وإلى وجوب القبول بما يرونه؛ لأن ما يراه الضيوف صواباً هو العدل الذي يجب أن يسود، كما أنه الحق الذي يجب أن يؤخذ به، وما عدا ذلك فهو باطل. كما كانت تلمح إلى أن غيرهم من القبائل هم أتباع الشيطان!! وجاء في إحدى النشرات التي يوزعونها قولهم:

" لئن كان الله قد سمح بأن يجتمع على هذه السفينة أفراد من قبيلتنا من رجال ونساء، اختيروا من قبل الله، فذلك لأنه قد منح قبيلتنا رسالة حكم العالم ذات يوم، ولا يمكنها أن تكون على خطأ؛ لأن الله يؤيدها، وإن أي موقف معاد لها نعده غير قابل للفهم، وبالتالي فهو غير شرعي ".

تململ ركاب السطح من هيمنة رجال الأمن من الضيوف، وتدخلهم المستمر في كل شؤونهم، بدعوى حفظ الأمن، وعظم عليهم سجن إخوانهم في أقبية الغالية بتهم ملفقة يؤكدها ضعف الحال الذي يعيشه ركاب السطح، وعدم قدرتهم على امتلاك ما

يزعمه القائمون على الأمن. وأحس الجميع بأن تجوز الشيوخ في الظلم كان نتيجة جهل بالأمور وواقع الحياة، في حين أن ظلم الضيوف كان نتيجة علم وتدبير وتخطيط.

وفي محاولة يائسة لتهدئة النفوس أمر صاحب الغبطة الناجي بالصعود إلى السطح، فأمهم في صلاة الظهر، لكنه حدثهم عن حدود الدين وشموله لحياة الإنسان، وأكد على أن المؤمن الصالح هو من يحس بهموم إخوانه وقبيلته. وحدثهم حمدان عن طبيعة المؤمن التي لا ترضى الذل مهما كلفها ذلك. وحدثهم سويلم بعد صلاة العصر قائلاً:

تتوالى الأحداث وتتكالب المصائب على أهل الغالية. وأخذ ركاب السطح يتعرضون للنكبة تلو الأخرى. وألمت بهم مصائب جسام من أشدها على النفوس الزج بهم في السجون المظلمة دون ذنب اقترفوه إلا تهماً باطلة ملفقة. إن ما نحن فيه أمر جلل لم يسبق لمثله في تاريخ القبيلة على مر تاريخها الطويل. حيث تداعى عليها الطامعون من كل حدب، ونابذنا العداء حتى الأقرباء، وبتنا نعذب على مرأى ومسمع ممن نرجو منهم الحماية دون أن يحرك ذلك ساكناً. وقد ورد عن الرسول: أن من أذل عنده مؤمن فلم ينصره، وهو يقدر على أن ينصره، أذله الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة...

لقد أصبحنا لا نأمن على أنفسنا في الليل أو النهار من أي غائلة تأخذنا فلا نرجع بعدها. وأصبحت حركاتنا مرصودة، وإن جلل الأمر بالتسامح الظاهر والابتسامات المصنوعة. لقد منعنا من رفع الأذان فهل هذا من التسامح، ومنعنا من إقامة صلاة الجمعة استناداً إلى فتوى مفادها أننا على سفر! عجباً أو لم نكن على سفر قبل ذلك فما الذي تغير؟

نشكو أمرنا إلى الله فإليه الأمر كله. أما وحالنا على الغالية بهذا الضعف فعلينا بالإكثار من الدعاء لمن أسر من إخواننا في الخلوات والجماعات، وفي القنوت في الصلوات وسائر مظان الإجابة.

وقرأ الإمام في صلاة المغرب قول الله تعالى: ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا...﴾ كما قرأ في العشاء الأخيرة قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

كانت شرطة الغالية التي كونها الضيوف تتحرك في كل مكان في أرجاء السطح، ترقب ما يحدث، لكنها لم تقدم على أي تصرف تجاه ذلك الغليان الذي أصاب النفوس وظهر على الألسن...!!

(٢٨)

عقد السيد فوميل اجتماعاً سرياً في غرفته الخاصة، مع ثلاثة من قادة الأمن من رجاله وناقش الوضع على ظهر الغالية. حياهم تحية مقتضبة، ثم أشعل سجارته وأخذ يدخنها ببطء. استهل حديثة قائلاً:

- **رغم ما بذلناه على ظهر السفينة إلا أننا نجد الكره لنا يزداد..**

قال يوسف زامير بثقة:

- **إن هؤلاء لا يعرفون مصلحتهم...**

وأكد موسى تكواه قول صاحبه بالقول:

- **إنهم لم يعتادوا على الحرية التي أعطيت لهم.**

ابتسم هيرمان وقال:

- **هل سجن بعضهم وتعذيب بعضهم الآخر هو الحرية التي تريدونهم أن يرحبوا بها.**

أحس موسى تكواه أن النقد موجه إليه فقال:

- **لم يسجن من سجن إلا بسبب جناية ارتكبها، لقد مثل أمام محاكمة عادلة و....**

obeikandl.com

أوقف السيد فوميل المناقشة، وقال:

- دعوكم من التفكير في الأسباب الآن.. نحن نبحث عن أسلوب لإيقاف حركة المعارضة التي بدأت تتأجج على السطح.

رد يوسف زامير:

- وما الذي يهمنا في مثل هذه المعارضة؟

- هل ترى أن أي حركة تمرد أو عصيان هي أمر هين على ظهر السفينة؟

- ليست بالأمر الهين، ولكن رجالنا بأسلحتهم كفيلون بإعادة الأمور إلى وضعها الطبيعي.

- ألا تخشى أن يعم العصيان؟

- ما ذا تقصد سيد هيرمان؟

- ألا ترى أن يتحول امتعاض المشايخ إلى عمل إيجابي؟

- لا أعتقد ذلك.

رد السيد فوميل:

- ولماذا لا تعتقد أن يحصل تحول في موقفهم؟

- لأني أراهم مشغولين بما هم فيه!!

- أخشى أن يعودوا عما ألهاهم!!

- ثم إن الخلافات بينهم تزداد تأججاً.

قال السيد هيرمان:

- ألا يمكن أن يؤثر عليهم صاحب الغبطة حجة الدين الناجي.

تنهد يوسف زامير، وقال:

- ذلك هو العقبة الكأداء التي أبت على كل المتسلقين!!

رد يوسف تكواه بثقة:

- ليس له أي دور مؤثر على الشيوخ..!

- ومع ذلك فإنهم يكنون له الاحترام..

- يكنون له الاحترام لكنهم لا يخشونه!

- ألا ينقلب هذا الاحترام إلى خشية ثم إلى فعل..

- لم يكن راضياً عن كثير مما سبق، ومع ذلك لم يظهر له أي أثر في قرارات الشيوخ.

قال السيد هيرمان:

- ولكنه خرج إلى السطح ووعظ الركاب هناك.. كما أنه لم يوقع على بيان أصحاب الغبطة..!

obeikandl.com

رد يوسف تكواه:

- **ليعظهم، فنحن في أمس الحاجة إلى وعظهم..!**

- **ليس الوعظ الذي تعرفه.**

- **لماذا لا نتدبر له ما يشغله عن هذا النوع من المواعظ؟**

قاطعهم السيد فوميل قائلاً:

- **تلك مرحلة انتهت وليس هذا أوان تكرارها. ولهذا علينا البحث عن عمل سريع وفاعل، فالأمر أخطر مما تتصورون!!**

قال السيد هيرمان:

- **هل تقترح شيئاً محدداً سيد فوميل..**

- **لا شيء محدد في الذهن، ولكن المؤكد أنه لا بد من عمل حازم ينهي حالة المعارضة إلى الأبد...**

- **يمكننا أن نقوم بحركة اعتقالات واسعة..!**

- **ستثير ركاب السطح أكثر، وقد تثير غيرهم، ولن تحقق لنا شيئاً..**

توقف هيرمان قليلاً عن الحديث.. ثم قال:

- **لابد أن يقوم ركاب السطح بعمل ما يسوغ لنا أي إجراء صارم ضدهم..!**

obeikandl.com

قال موسى تكواه:

- **هل ترى أن نخفف وطأة الرقابة عليهم..؟**

أجاب السيد فوميل بحزم رافعاً صوته:

- **لا، لا، وإلا لاشتعل السطح بمن فيه..**

تكلم السيد هيرمان بشيء من الثقة والتحديد في كلامه:

- **لا بد أن يقوم ركاب السطح بفعل يجرم أغلبهم، وإذا تم ذلك سهل كل شيء..!**

ابتسم السيد فوميل بعد طول تجهم وقال:

- **لعلي أحس بأن لدى السيد هيرمان خطة بهذا الشأن..!**

- **هو مشروع خطة أولي، يحتاج إلى دراسة وتمحيص...**

وتم الاتفاق على مشروع خطة السيد هيرمان، وعاد الجميع لتسيير العمل في باطن السفينة وسطحها. في حين كان النادي الليلي يقوم بعمله كالمعتاد.

في الصباح الباكر، أعلنت حالة الطوارئ في صفوف الشرطة على ظهر الغالية، وبدؤوا في تنفيذ جولات تفتيشية سريعة، تبين من خلالها أن سلاحاً نارياً قد فقد من أحد أفراد الشرطة المكلفين بالحراسة الليلية.

لم يترك مكان في الغالية إلا تم تفتيشه، حتى الأجنحة الخاصة، مما أوقع الفزع في نفوس الجميع، خاصة أن الإذاعة قد نبهت إلى خطورة هذا السلاح، وقدرته التدميرية، وحذرت من محاولة استعماله، ولو كان على سبيل التجربة..!!

أصيبت الغالية ذلك اليوم وتلك الليلة بالفزع، وأعقبه سهاد طويل للجميع، ألغيت الحفلات الليلية على أثره، وكذلك أغلقت قاعة اللعب، ونامت الغالية مبكرة!

أخذ الشيخ أبو الفوارس يتقلب في فراشه ويتساءل: هل عرف ركاب السطح بيعي لأسهم العشيرة في الغالية.. أخشى أن ينتقموا مني وأكون أول ضحاياهم.

ولم تغمض جفن للشيخ أبي المكارم، أخذ يحدث نفسه: هل تراهم يتوقعون أن لي دوراً في سجن بعضهم، لولا الخشية من الفضيحة لخرجت لهم في السطح وأخبرتهم بألا دخل لي في ذلك.

وبات أصحاب السلطان سُهداً، يراجعون أعمالهم مع ركاب السطح.. ولم ينج من تلك المراجعة أصحاب الغبطة، فإنهم أخذوا يعاتبون أنفسهم على إصدار ذلك البيان الذي تضمن إدانة للركاب بما نسب إليهم من أعمال:

- **كان ذلك ما أشرت به علينا يا صاحب الغبطة.**

قال حجة الدين العدوي:

- **أردت درأ الفتنة وما يؤدي إليها.**

قال حجة الدين الطاهر بحسرة:

- **بل أردت مكافأتهم على زواجك.**

ابتسم حجة الدين العدوي بأسى وقال:

- **حسبي الله! ما ذاك الزواج؟!**

ثم استدرك حجة الدين البهلوي:

- **كان بياننا معتدلاً، ولا أرى أنه سبب سوء علاقة بيننا وركاب السطح..**

- **هذا ما تراه، لكن المهم ما يراه من حصل على السلاح..!!**

وبقي أصحاب الغبطة في مناقشات لا تنتهي..

مرت أيام ثلاثة، والخوف ما زال مسيطراً على النفوس، لكنها عادت بعد ذلك إلى حياتها المعتادة، وعاد السمر إلى النادي الصيفي في السطح، وإلى موائد اللعب، ونسي الجميع ذلك السلاح المفقود، وإن لم ينس الضيوف.

في الساعة الرابعة صباحاً وبينما كان أهل النادي الصيفي يلملمون أنفسهم بعد انتهاء حفلة الليلة، وركاب السطح يؤدون صلاة الفجر، إذ سمع دوي شديد اهتزت له الغالية.

هرع أهل النادي لمصدر الصوت... أنهى المصلون صلاتهم... أخذوا يسألون عما حدث... بقي الصمت مطبقاً، في حين كانت

الغالية تسير كالمعتاد، إلى أن حدث دوي آخر أشد وأقوى، ارتجت على أثره جوانب السفينة الراسية التي لم تهزها الأعاصير السابقة عند مخرها لخضم أمواج المحيطات الهائجة.

ارتاع ركاب السطح... خافوا على الغالية... خافوا على أنفسهم... خافوا على كل شيء.. أخذ الوقت يمر بسرعة بين انفجار وآخر، وليس هناك من خبر... إلى أن فتحت أبواب السطح وخرج منها أصحاب السلطان ورجالهم وأتباعهم ، وظهرت على الجميع أمارات الخوف والفزع...

تنادوا فيما بينهم، أنزلت قوارب صغيرة إلى الماء... أخذ الشيوخ في النزول إلى القوارب... لحق بهم الضيوف على قوارب أخرى، وهم يرددون فيما بينهم:

- كان السلاح أقوى مما خطط له...

ظهر الفزع والهلع على الشرطة...! بقي أحدهم يصدر التوجيهات على عجل، لكنه هو الآخر هبط إلى قارب جانبي صغير..

عمت الفوضى السطح... حاول بعض ركابه اقتلاع أجزاء من الخشب لكن لم ينجح الجميع.. أمسكت بأحد أطواق النجاة، جاء أحد الركاب ليأخذه مني، لكني دفعته بشدة فسقط.. وجدت طوقاً

منسياً في أحد الزوايا.. أعطيته ذلك الذي أسقطته.. شكرني.. ثم قال:

- **وماذا بعد؟ هل ننتظر؟**

- **لا أدري..**

- **ما...**

ثم انفجرت الغالية انفجاراً ضخماً، بدأت بعده في الميل على جانبها.. رميت بنفسي إلى الماء.. وأخذت أغرق.. أغرق في أعماق المحيط..

أحسست بالأرض فأدركت أني على اليابسة.. لم أستطع أن أفتح عيني من شدة الإعياء.. سمعت منادياً ينادي بصوت خفيض:

- **الله أكبر.. ألله أكبر....**

- **أطرقت بسمعي..النداء يرتفع..يرتفع شيئاً فشيئاً...**

أيقظتني زوجتي:

- **قم، فقد أذن لصلاة الفجر.**